ثم إن هناك اطمئناناً إلى أن الصواع في تلك العير بالذات وليس في سواها أو أي مكان آخر بحال .

كلّ هذه الأسباب مجتمعة جعلت المنادي ينادي في تلك الصورة التي أزعجت كلّ أهل العير . وقد تم تحت سمعهم وبصرهم جميعاً ، الحوار المعروف كما أنهم قد وصلت إليهم الأنباء الأكيدة بعثور الصواع في رحل الأخ الأصغر واسترقاقه .

ومن هنا جاز للأخ الأكبر أن يستشهد على صحة ما يقول الإخوة لأبيهم بأهل العير ، تماماً كما استشهد بأهل القرية .

ونعتقد أن المسؤولين عن البحث لم يكونوا ليلحقوا القافلة في تلك القرية بالذات لولا حساب العزيز الدقيق .

أما لماذا وقع اختيار العزيز على ذلك المكان المأهول بالناس بالذات ؟ فلأنه ارتبط به تشهير واضحٌ بما حدث . وفي ذلك إبعاد تامٌّ للإخوة عن مجرّد الظّنّ بأنّ في المسألة لسرّاً وجعلهم يعتقدون أن الأمور تسير سيراً طبيعياً لا تصنُّع فيه ؛ فإنه قد يكون من حقهم أن يظنوا ظناً ما .

أليسوا هم الذين وجدوا في المرة الأولى ثمن الطعام الذي اشتروه من مصر في كل رحالهم ؟

أليس من حقهم أن يتساءلوا من الذي وضع الثمن في كل رحالنا ؟

أليس من حقهم أن يعقدوا نوعاً من العلاقة بين وجود الثمن في رحالهم ووجود الصّواع ؟ ولكن الذي حال بينهم وبين ذلك التشهيرُ الذي حدث على أوسع نطاق . وقد ذهل الإخوة ، بالتفكير في هذه المصيبة التي حلت بهم عن كل شيء آخر .

رابعاً : إن السبب الذي يجعلنا ننتهي إلى أن المسؤولين عن البحث هم من فتيان يوسف ، أنّهم كانوا مؤتمنين على أدقّ الأمور وأخطرها .

فهم الذين طُلِبَ منهم في المرة الأولى أن يضعوا في رحال الإخوة ثمن البضاعة .

وهم الذين وضعوا الصواع في المرّة الثانية أو واحد منهم بعبارة أدقّ .

ثم إننا حينما نتأمل ما جاء على لسان هؤلاء المسؤولين من قوله تعالى: ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ . بقصد أخذ الحكم على السارق من أفواه الإخوة وذلك كما هو معلوم بإيحاء من الله تعالى إلى يوسف قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾ . فإن ذلك يدل على أنّ هؤلاء السائلين إنما سألوا بإيحاء من يوسف الذي نبههم إلى ضرورة طرح هذا السؤال .

وكان يوسف على يقين من أن جواب الإخوة سيكون موافقاً لشريعة إبراهيم ، وليس موافقاً لقوانين المصريين الوضعية .

وما دام يوسف هو صاحب السلطة ، و فتيانه يستمدون سلطتهم من سلطته ، لذلك فالأقرب إلى العقل ، أن يُوحى يوسف بهذا السؤال إلى فتيانه وليس إلى أية سلطة أخرى ، خاصة وأنهم — كما أشرنا — مؤتمنون على كل صغيرة وكبيرة .

ونحن نودّ أن نتلو معاً ست آيات من هذا المشهد ، كي يتبين لنا أنها لا تتضمن أي حديث مباشر من يوسف لإخوته . قال تعالى: ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾ .

خامساً : إن جملتي : « بدأ » و « استخرج » من قوله تعالى: ﴿ فبدأ

بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ . تعودان كما هو واضح إلى شخص مفرد . وليس عندنا سوى المؤذن والعزيز اللذين يمكن أن يعود إليهما ضمير الجملتين ، كما يقول بذلك السياق .

ونريد أن نعرف بصفة أكيدة على من يعود الضميران فنتساءل : أيمكن أن يكون المراد المؤذن في هذه الآية ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ؟ والجواب بالنفي .

لماذا ؟ لأن تركيب هذه الجزئية ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ لا يهيىء لفهم كهذا ، فلو أن المؤذن هو المراد لجاء السياق في صورة كهذه « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخي يوسف ثم استخرجها من وعائه » فدل عدم مجيء اسم يوسف في الظاهر أن الضمير في الفعلين لا يعود على المؤذن . وهذا يعني بالتالي أنه بالضرورة يعود على يوسف .

وقد يبدو لأول وهلة أن تحقيق من يعود عليه الضميران ليس من الأهمية بمكان ، ولكن الحقيقة غير ذلك .

إذ حينما يتضح أن الذي قام بالتفتيش الفعلي هو يوسف عليه السلام وليس المراد بطبيعة الحال أنه قام بهذه العملية بنفسه لكن تحت إشرافه ، فهذا يعني أن سلطة الفتيان والمؤذن محدودة .

وهذا يعني أيضاً أن التفتيش لم يتم في القرية التي لحق المؤذن العير فيها ، ولكن في مدينة العزيز نفسها ؛ إذ من المستبعد تماماً أن يتحول العزيز إلى المكان الذي وصلت إليه القافلة بقصد البحث عن الصواع . فلا يتمشى هذا بالكلية مع الهيبة التي كانت للعزيز دائماً .

والأقرب إلى العقل أن يكون الإخوة هم الذين عادوا إلى المدينة ، والله أعلم .

وبناءً على ما سبق فإن قوله تعالى: ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ إلى آخر الآية يبدأ به مشهد جديد .

وبعد توضيح النقاط المسعفة على الوصول إلى تبيّن خفايا شخصيات هذا المشهد ، نعود إلى تأمل آياته ، كلٌّ جزئية على حدة .

قال تعالى: ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذنٌ أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ .

وقفنا عند الآية الأخيرة ، وانتهينا إلى أن قوله تعالى: « نفقد صواع الملك » جاء على لسان الفتيان وقوله تعالى: « وأنا به زعيم » جاء على لسان المؤذن .

وتبقى بعد ذلك هذه الجزئية بينهما ﴿ ولمن جاء به حِملُ بعير ﴾ على لسان مَنْ جاءت ؟ فلنتل الآية مرة أخرى . قال تعالى: ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ .

في الحقيقة من الجائز أن تكون استمراراً لقول الفتيان ، فيكون قد جاء على لسانهم: « نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير » .

ومن الجائز أن تكون قد جاءت على لسان المؤذّن ابتداءً ، فيكون قد جاء على لسانه « ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » ، ونحن إلى هذا الرأي الأخير أميل . . لماذا ؟

لأن الإخوة قد أقبلوا بكليتهم على المؤذّن لهول ما سمعوا . وكان كلامهم موجزاً « ماذا تفقدون » ؟ فاقتضى كلامهم الموجز الجادّ في هذا الظرف الحاسم ردّاً موجزاً جادّاً يكافئه « نفقد صواع الملك » ثم تلا ذلك كلام المؤذن الذي فيه شيء كبير من الإغراء والترغيب .

ويلفت انتباهنا إضافة الصواع للملك . ويستفاد من ذلك ما يلي :

١ ـ بما أن هذا الصواع ليس ملكاً لشخص بعينه وإنما هو ملك للدولة ورأس البلاد ، لذلك أضيف الصواع إليه .

٢ ـ إصرار الفتيان على إضافة الصواع لرأس البلاد دليل على ولاء هؤلاء الفتيان المطلق له .

فعلى الرغم من ارتباطهم التّامّ بالعزيز ، إلا أنهم يعرفون تماماً أن العزيز سيدهم تبع لحاكم البلاد الأول . ولا نشك أن هذا الولاء من الفتيان صورة طبق الأصل من ولاء سيّدهم لسيّده .

٣ ـ لو أن جواب الفتيان على أهل العير المنزعجين تمام الانزعاج لتسريقهم « نفقد صواعاً » دون أن تأتي الإضافة ، لما كان جواب الفتيان مقنعاً لأهل العير بأحقية هؤلاء المسؤولين للاهتمام بهذا الصواع كل هذا الاهتمام والتشهير بكل أهل العير في تلك الصورة القوية من التعبير بأنهم سارقون ، بل وتوقيف العير وإعادتها من المكان الذي وصلت إليه إلى مدينة العزيز .

ولكن حينما يضاف الصواع إلى الملك ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ فليس ذلك الجواب مقنعاً لأهل العير بكلّ ما يحدث فقط ، بل ومثيراً لاهتمامهم وحرصهم على دفع التهمة عنهم .

ونستطيع أن نفهم أن هذا الصواع ليس عادياً إنما هو من طراز معين لذا جاز إضافته إلى الملك .

٤ ـ حينما يجيء على لسان الفتيان ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ ويعثر على ذلك الصواع في رحل الشقيق ، فإن الإخوة المذهولين لهول الصدمة لا يثير ما جاء على لسان الفتيان التفكير عندهم وقتاً من الأوقات لإيجاد نوع من علاقة بين كلام الفتيان من ناحية ، وبين العثور على الصواع هذه المرة في

رحل أخيهم ، وثمن البضاعة في المرة الأولى في رحالهم جميعاً . بخلاف ما لو جاء على لسان الفتيان مثلا « نفقد صواع العزيز » .

ومن يدري ؟ ربما رنّ لفظ الملك في آذان الإخوة لأول مرة بعد فترات طويلة ، لأن علاقتهم دائماً بالعزيز وليست بالملك . فإن صحّ هذا فهذا يعني أن اهتمامهم بالمسألة أكبر .

وعموماً فقد قلب هذا النداء ، وذكر السبب فرحة الإخوة رأساً على عقب .

فإذا انتقلنا إلى عبارة الإغراء والترغيب ، التي انتهينا إلى أنها أتت بجزءيها على لسان المؤذن أعني قوله تعالى: ﴿ ولِمنْ جاء به حِمْلُ بعير وأنا به زعيم ﴾ فإنا نلاحظ ما يلي :

١ — يبدو من هذا القول الاهتمام البعيد بالصواع والحرص على العثور عليه .

٢ — كما تبدو الرغبة في معالجة المسألة بطريقة ودية ، إن صحّ أن هناك تجاوباً من المخاطبين .

٣ — يبدو من الجزئية الأولى « ولمن جاء به حمل بعير » ذكاء هذا القائل في اختيار الطعام جزاء لمن جاء بالصواع في الوقت الذي كانت فيه المجاعة في أوجها .

٤ — كمية الطعام التي اتخذت جزاء كبيرة جدّاً ، إنها حمل بعير .

وهذا دليل من ناحية ، على قيمة الصواع العالية .

ومن ناحية أخرى على الرغبة الأكيدة في استعادته مهما كان الثمن غالياً .

ويكفي أن نعرف أن الشخص الذي يأتي من أقصى الأرض لا يمنح أكثر من حمل بعير واحد ، حتى ولو كانت حاجته لأكثر من ذلك .

٥ ــ يبدو من هذه الجزئية « وأنا به زعيم » ثقة هذا المؤذن المطلقة في نفسه واطمئنانه إلى أنه بحكم منصبه والسلطة المخولة له ، قادرٌ على أن يفعل ما يقول . ونظن بناءً على ذلك أن المؤذن لم يكن شخصاً عادياً .

٦ ــ نستشف من هذه العبارة ﴿ ولمنْ جاء به حملُ بعير وأنا به زعيم ﴾ اعتقاد القائل بوجود الصُّواع لدى الذين يخاطبهم واحتمال مجيء واحد منهم به . فهذا هو الذي يفسر الإغراء والترغيب وإعطاء الوعد الأكيد .

٧ ــ كانت عبارة الإغراء والترغيب وتأكيد الجزاء مثار استفزاز بعيد المدى للإخوة . فقد فهموا أن المؤذن يعنيهم بما قال ، وأن الصواع لا محالة ، وأنه يُغريهم بالطعام الذي أتوا من مكان بعيد للحصول عليه . وإن تحديد الجزاء بحمل بعير ، طعنةٌ موجهةٌ في أفئدة الإخوة جميعاً .

٨ ــ نعتقد ، والله أعلم ، أن قوله تعالى على لسان المؤذن:﴿ ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ قول لم يكن ليخطر على بال المؤذن لولا أن العزيز أوحى إليه بأن يقول ما قال . فلا يمكن بحال أن يكون ذلك من قبيل المصادفة .

٩ ــ فهمنا أن الإخوة أرادوا أن يعودوا بعد جعل يوسف في غيابة الجبّ قوماً صالحين ، وقد عادوا قوماً صالحين بالفعل .

وحينما يتبيّن الإخوة الذين هذه صفتهم ، أن الكلام الأليم الصادر من الفتيان والمؤذن ، يكاد يكون مفصّلا عليهم ، فإن ذلك مزعج لهم تمام الإزعاج ، يطعن في خُلقهمْ ويمرّغ في الرغام كبرياءهم .

وبطبيعة الحال لم يسكت الإخوة على هذه الإهانة الموجّهة إليهم ، وهم أبناء نبي الله يعقوب ، المعروفون بالتقوى والورع . ولا يجهل الفتيان هذه الصفة فيهم ، ولذلك جاء عنهم قوله تعالى ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسدَ في الأرض وما كنا سارقين ﴾ .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان هؤلاء الإخوة ، فإنّا نجده مزيجاً من التعجب والاستغراب والدفاع عن النفس والاعتداد بها .

فنحن نجدهم يبدأون حديثهم بتاء القَسَم ولفظ الجلالة المُقسم به «تالله» ، ويلاحظ أن التاء تفيد التعجب زيادة على ما يفيده سواها .

فقد قال الزمخشري في قوله تعالى على لسان إبراهيم في سورة الأنبياء: «وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلوا مدبرين» : فإن قلت : ما الفرق بين الباء والتاء ( يريد باء القسم وتاءه ) ؟

قلتُ : إن الباء هي الأصل والتاء بدلٌ من الواو المبدلة منها ، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجُّب ، كأنه تعجّب من تسهُّل الكيد على يده وتأتيه لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذُّره . ولَعَمْري إنّ مثله صعب متعذر في كل زمان ، خصوصاً في زمن نُمْرُوذ مع عتوّه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نُصرة دينه ولكن : إذا الله سَنّى عقد شيءٍ تيسّرا » (١) .

فهؤلاء الإخوة يتعجبون من الذين قالوا لهم ما قالوا دون أن يرعوا حُرمة لأمانتهم ودينهم المعروفين .

وقد كان بمقدور الإخوة أن يُقسموا فقط بالله العظيم وليس بسواه ، أليسوا بمسلمين لله رب العالمين ؟ بلى . وكانت اللام من قولهم « لقد علمتم » التي تفيد التوكيد ، هي جواب القسم ، وقد دخلت على قد التي تفيد التوكيد أيضاً (٢) وإن الفعل علم ، الذي جرى على لسانهم ليدلُّ على ثقة هؤلاء الإخوة في صحة سلوكهم جميعاً ، وأن باطن كل واحدٍ منهم كظاهره ، لا يشكّون في كل ذلك مثقال ذرة .

---

(١) الكشـاف ٢/٣٣١ .

(٢) انظر مثلا كتاب اللامات للزجاجى ص ٧٨ و ٧٩ .

فهم مطمئنون إلى أن الجميع ، وفي مقدمتهم الفتيان والمؤذن ، عندهم صورة واحدة عنهم .

فكيف انقلبت هذه الصورة رأساً على عقب ؟

وكيف أباح هؤلاء لأنفسهم أن يخاطبوهم بهذه الجرأة الغريبة المفزعة ؟

إنهم ليعلمون يقيناً أننا لم نجيء مصر بقصد الإفساد في الأرض ولكن بقصد الامتيار .

لقد اتضح ذلك حينما أتينا في المرة الأولى للغرض نفسه وخرجنا بسلام ولم يحدث من أي فردٍ منّا أيُّ سوءٍ . وهذا دليلٌ بليغٌ على نقاء مَعْدِننا وطهر أنفسنا .

وقد علم كلٌّ واحد بحقيقتنا ، فكان الأولى أن يُقدِّر لنا ذلك وألا نخاطبَ في الطريقة التي خوطبنا بها والتي صورنا فيها سارقين . وكأن الشيء الذي سُرق قد وجد في رحالنا فعلا .

يا لها من جرأة لا حدَّ لها اتّسم بها المؤذن .

إنه لا يجيء على لسانه : أيتها العير إنكم لمتهمون ، ولكن أيتها العيرُ إنكم لسارقون .

إنه حينما يقول ما يقول ويعضده الفتيان . أكانوا يجهلون حقيقة خُلقنا في المرة الأولى ؟ لا . . لم يجهلوا خلقنا .

هل سمعوا عنا شيئاً غيّر رأيهم فينا ؟ ومن الشخص أو الأشخاص الذين يعرفون عنا أي شيءٍ نحن الغُرباء .

هل كُنا جميعاً أو كان واحد منا يوماً من الأيام سارقاً ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون لله رب العالمين .

وتأمل الفعل الذي جرىعلىألسنة الإخوة في « علمتم » وليس هناك فعل آخر يجاريه في قوة الدلالة في هذا الموضع إذ أنّه يدل على العلم اليقيني .

وإنه ليذكرنا بالفعل نفسه الذي جرى على لسان يوسف مخاطباً إخوته كاشفاً النقاب عن حقيقة ذاته «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون» .

ونختم حديثنا عن هذه الآية بالقول : إن هذه الجزئية على لسان الإخوة «ما جئنا لنفسد في الأرض» تتعلق برحلتهم الثانية » التي مازالوا يقومون بها .

وإن هذه الجزئية «وما كنا سارقين» تتعلق بالماضي والحاضر . فإن الإخوة في ذلك الظرف الصعب أكثر ارتباطاً بالفترة الزمنية التي لهم فيها عَلاقة بالفِتيان والمؤذّن ، وأكثر تمثلا لها وتعلقاً بها مِنْ سواها .

والشيء الذي لا مراء فيه أيضاً أن كلام الإخوة في هذا المشهد يلفه الخلق الكريم الذي يتحلون به دائماً ما دام الأمر لا يتعلق بيوسف وأخيه .

إنهم حينما يقولون : «ماذا تفقدون» يفرضون على الفتيان أن يجيء على لسانهم «نفقد صواع الملك» فلا يجيء على لسانهم مثلا : سُرق منا صواع الملك ، على الرغم من تصريح المؤذن بالتسريق ابتداءً .

ولانشك أن هذا الخلق الكريم الذي ظهر من حديث الإخوة والذي وجه حديث الفتيان وجهة معينة ، هو الذي وجه أيضاً حديث المؤذّن وجهة أخرى مغايرة لحديثه الأول .

فإذا كان قد قال في جُرأة غريبة أولا: «أيتها العير إنكم لسارقون» فإنه لا يلبث بسبب جواب الإخوة اللطيف ، أن يتحول إلى الإغراء والترغيب والتعهد بتقديم المكافأة لمن جاءه بالصّواع «ولمن جاء به حِملُ بعير وأنا به زعيم» .

ونلمس هذا الخلق الكريم أيضاً فيما جاء على لسان الإخوة بعد ذلك مباشرة «تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين» .

ومع أن رد الفتيان بعد ذلك فيه شيء من عنف ، إذ صرّحوا باحتمال

كذبهم ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ ، إلا أن جواب الإخوة عليهم كان يلفه شيء كبير من الخلق العظيم والثقة التامة في براءة ساحة كلّ منهم والتمسك بحبل الدين المتين .

وسننعم النظر في هاتين الآيتين ملياً ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ، قال جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾ .

ونتساءل : علام يعود الضمير في قول المسؤولين « فما جزاؤه » ؟ هل يعود على شخص معين أم أنه يعود على الصواع ؟ .

وللجواب على ذلك نقول : لو ذهبنا إلى أن الضمير يعود على شخص واحد معيّن ، ويتضح في النهاية أن الصواع وجد عند شخص واحد معين . فكأن المسؤولين الذين نظنّ أن بعضهم على علم بموضع الصواع يسمحون للإخوة مستقبلا وهم الذين وجدوا في المرة الأولى ثمن الطعام أن يتساءلوا . هل هناك نوع من عَلاقة بين ضمير المفرد هنا وأخيهم المفرد الذي وُجد الصواع في رحله ؟ .

ولو فرض أن هؤلاء الفتيان لم يعلموا بحقيقة موضع الصّواع . وهذا جائز عقلا ، وقد عرفنا رغبة الفتيان في العثور على الصواع عند الإخوة بالذّات ، فالأقرب إلى المنطق لو أنهم أرادوا بالضمير غير الصواع أن يستعملوا ضمير جماعة المخاطبين : فما جزاؤكم إن كنتم كاذبين ؟ خاصة وأنّ لدى المسؤولين جرأة في الخطاب واضحة .

وحينما يستعمل المسؤولون ضمير المفرد الغائب فقد دلّ ذلك على أنه يعود على الصواع وليس على سواه ، وأن معنى قوله تعالى على لسانهم : « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ؟ فما جزاء سرقة الصواع إن وجدنا الصواع عندكم وثبت كذبكم ؟ والله أعلم .

وما قيل عن ضمير المفرد الغائب هنا يقال عنه في هذه الآية على لسان الإخوة : ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ﴾ .

فالضمير من « جزاؤه » يعود بطبيعة الحال على الصواع . والمعنى ، جزاء سرقة الصواع ويكون « جزاء » مبتدأ خبره « من وجد في رحله » والمعنى ، أخذ من وجد في رحله .

وقولهم : فهو جزاؤه . تقرير لحكم ، أي فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير ، كقولك : حق زيد أن يكسي ويطعم وينعم عليه فذلك جزاؤه أو فهو حقه لتقرر ما ذكرته من استحقاقه ، قاله الزمخشري (١) » .

وختم الإخوة حديثهم بهذه الجزئية ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ . والمعنى : هذا هو الجزاء الذي يستحقه السارق في شريعتنا العبرانية الإبراهيمية (٢) وخلاصته أن جزاء الشيء المسروق هو نفس السارق الذي يؤخذ كعبد لمدة سنة .

ويلاحظ أن الإخوة يجيء على لسانهم ﴿ من وجد في رحله ﴾ ولا يجيء مثلا : « من سرق » وكلامهم رد على الفتيان الذين وجهوا إليهم تهمة السرقة علناً .

وكان الإخوة على يقين أنهم من هذه التهمة بُرآء . فلم يشاءوا أن ينزلوا بأسلوبهم عن المستوى الرفيع الذي يساوي ثقتهم في طهر ذيل كل واحد منهم ، فجاء على لسانهم ﴿ من وجد في رحله ﴾ أولا ، وجاء على لسانهم ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ ثانياً .

فلم يجيء على لسانهم مثلا : كذلك نجزي السارقين .

فدل فرارهم إلى الظلم عن السرقة على سمو منزلتهم .

وبما أن المراد بالظالمين السارقون ، ولم يحدث أن اتّهم واحد منهم بشيء كهذا ، فدل ذلك على أن حديثهم يتعلق بسواهم وليس بذات أنفسهم.

---

(١) البحر المحيط ٥ ـ ٣٢١ .

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢ ـ ١٠٨٥ .

والحقيقة أن هناك أكثر من سؤال حول هذا المشهد نحبّ أن نجيب عن كل منها منفرداً .

والسؤال الأول هو أننا استنتاجاً من قوله تعالى على لسان الأخ الأكبر : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾ انتهينا إلى أن الإخوة كانوا بالضرورة في قافلة ، ولم يشكّلوا من ذات أنفسهم فقط تلك القافلة .

فكيف نوفق بين هذه الحقيقة والحقيقة الأخرى التي نستنتجها من الحديث الذي وُجه إلى أهل العير على لسان المؤذن والفتيان وهي أن السياق يوحي بأن كل الأجوبة التي حصل عليها المؤذن والفتيان كانت من الإخوة فقط ؟ .

والجواب على ذلك أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الإخوة يشكّلون أكبر كتلة متماسكة في القافلة ، وأكثر من في القافلة تمسكاً بأهداب الدين وآخر من كيل له الطعام من القافلة ، خاصة وقد عرفنا من إكرام العزيز للإخوة أنه كان يعطيهم من الطعام ما يكفيهم حتى يصلوا إلى بلدهم دون الحاجة إلى مس الرحال . بدليل أنّ الإخوة في المرّة الأولى وجدوا بضاعتهم في رحالهم بعد أن وصلوا إلى بلدهم بالفعل .

لكل ما سبق كان انزعاج الإخوة أكبر من كل فرد في القافلة ، بسبب ما جاء على لسان المؤذن ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ فتصدوا هم للردّ . وصح أن تؤخذ شهادة الباقين .

والسؤال الثاني هو أننا حينما نتأمل ملياً الحديث والتساؤلات وتصرف المؤذن والفتيان مع الإخوة ، فهل في إمكاننا أن ننتهي إلى أن هؤلاء المسؤولين قد قاموا بكل ذلك من عند ذات أنفسهم ؟

والجواب على ذلك هو أن كلام المسؤولين ينقسم إلى قسمين :

(أ) قسم يمكن أن يقال فيه إنهم قاموا به من عند ذات أنفسهم . وهذا ينتهي بقول المؤذن:« وأنا به زعيم » .

(ب) وقسم لا يمكن أن يقال فيه إنهم قاموا به من عند ذات أنفسهم . وهذا يشمل سؤال القائلين : « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ؟

أما لماذا لا يستطيع المسؤولون أن يسألوا سؤالا كهذا من عند أنفسهم ؟

فالجواب على ذلك أن هذا السؤال هو محور الكيد ليوسف عليه السلام . في قوله تعالى : « كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علم عليم » .

فدل هذا على أن هذا السؤال إنما تنبه إليه المسؤولون عن طريق نبي الله يوسف ، الذي انتهى إليه بدوره عن طريق الوحي .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن تكيد ليوسف بإبقاء شقيقه عنده جزاء وفاقاً للإخوة على كيدهم ليوسف من قبل .

وما أسهل وضع الصواع في رحل الشقيق !.

وما أسهل اتهام الإخوة بالسرقة !.

وما أسهل تفتيشهم والعثور على الصواع في رحل الشقيق !

ولكن ما أصعب استبقاءه عند يوسف ! لأن جزاء السارق في عرف المصريين أن يغرم مثليْ ما أخذ لا أن يلزم ويُستعبد (١) ، أما في آل يعقوب فأن يسترقّ سنة (٢) .

وإنما فطن يوسف عليه السلام إلى هذه النقطة المهمة ، بإيحاء من الله تعالى ، وألقى بها هو بدوره في روع المسؤولين ..

ومن هنا جاء على لسانهم هذا السؤال : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟

---

(١)الكشاف ١٤٨/٢ ، ومؤتمر تفسير سورة يوسف ١٠٨٦/٢ .
(٢)الكشاف ١٤٨/٢ .

لأن القصد منه حملُ الإخوة على اختيار الحكم الذي يطبقونه في شريعتهم .

وأنى للمسؤولين أن يفطنوا إلى مغزى بعيد جداً كهذا ؛ لو لم يكن يوسف عليه السلام قد نبّههم إليه .

وبما أننا انتهينا إلى أن هذا السؤال ، الذي يشكل القسم الثاني من حديث المسؤولين ، لم يقوموا به من عند أنفسهم ، فإنا نستطيع أن نقول أيضاً إن القسم الأول من الحديث في مادّته وطريقة إلقائه كان بإذن بل إغراء من يوسف .

بل إننا نستطيع أن نقول : إن يوسف هو الذي طلب من المسؤولين أن يتم تفتيش الإخوة بحضرته ؛ وليس في المكان الذي ينادى عليهم فيه كما يقضي بذلك العرْف .

والسؤال الثالث هو : أكان بإمكان الإخوة أن يكون جوابهم غير الذي جرى على لسانهم ﴿ جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ﴾ ؟

والجواب على ذلك أن هناك سبباً رئيسياً جعل هذا جواب الإخوة . هذا السبب هو أنهم كانوا على ثقة تامة من أنهم جميعاً بريئون من هذه التهمة التي وجهت إليهم .

لماذا ؟ لأنهم واثقون من صلاح كل فرد منهم .

ألم يجيء على لسانهم قبل جعل يوسف في غيابة الجب قوله تعالى : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ ؟

وها هم أولاء قد عادوا فعلا قوماً صالحين . وبما أن شقيق يوسف لم يكن واحداً منهم حينما تخلصوا من يوسف ، إذن هو شخص صالح أصلا ، لم يتورط في مثل الجريمة التي تورطوا فيها . وبالتالي هو أوْلَى من إخوته لأبيه بالابتعاد عن تهمة كهذه .

وكأنّ الإخوة قد فهموا من هذا السؤال ﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ ؟ ما جزاء سرقة هذا الصُّواع من قِبل شخص من سواكم ؟

وكان جوابهم مبيّناً حد السارق في شريعة آل يعقوب عليه السلام .

ويلاحظ أنهم في ذكرهم لحد السارق في الشريعة الإبراهيمية ، يكتفون بالقدر الضروري من الحديث الذي يفهم منه أنهم لا يرتضون بذلك الحد بديلا .

إنهم لا يذكرون ذلك الحد بالتفصيل بأن يشيروا مثلا إلى استرقاق السارق لمدة سنة .

وهم إنما فعلوا ذلك اطمئناناً منهم إلى أن قصدهم معروف . ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ﴾ .

ونود أن نسأل سؤالا افتراضياً متفرعاً من السؤال السابق هو : هبْ أن الإخوة اعتقدوا احتمال أخذ واحد منهم للصواع . أيكون جوابهم هو السابق أم أنهم سيختارون الحكم المصريّ الوضعيّ ؟ إن صح أنهم أو أن بعضهم كان على علم بذلك الحكم .

والجواب على ذلك – ولا يخفى أننا ما زلنا في دور الافتراض – أن الصالحين منهم لن يختاروا غير حكم الشريعة الإبراهيمية بعكس غير الصالحين الذين ربما اختاروا الحكم الآخر .

ولكنّ الشيء الذي نودّ تأكيده أن كل أبناء يعقوب بلا استثناء كانوا قمة في الطُّهر والصلاح ، وبالتالي لا ينتظر منهم البتة جواب غير هذا الجواب ، والله أعلم .

والسؤال الرابع والأخير ، وثيق الصلة في حقيقته بالثالث ، وهو : أكان بإمكان يوسف عليه السلام ألاّ يسأل إخوته هذا السؤال « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ؟

والجواب على ذلك ذو شقين :

الشق الأول : تتبيّنه في قوله تعالى : ﴿ كذلك كِدْنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾ فدلّ ذلك على أن هذا السؤال الإلهاميّ ضروريّ . فلولاه لما نجحت الخطة ولما استطاع يوسف أن يبقي شقيقه عنده .

والشق الثاني ، يتضح من القول التالي : لا شك أن نبي الله يوسف عليه السلام ، كان يدعو الناس إلى دين الله ، وكان حريصاً على دخولهم في دين الله أفواجاً .

أليس هو الذي جاء على لسانه مخاطباً الفتيين في السجن قوله تعالى: ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

ولا شك أيضاً أنه عليه السلام كان حريصاً على تطبيق الشريعة الإبراهيمية بحذافيرها .

والآن نتساءل : لو فرض أن يوسف عليه السلام لم يسأل سؤالا كهذا فما معنى هذا ؟ معناه أن الحكم الذي تقول به الشريعة الإبراهيمية يعطّل في حق أتباع الشريعة الإبراهيمية نفسها ، ويطبّق القانون الوضعي . وهذا الشيء لم يكن ليحدث البتة من يوسف عليه السلام ، ودلّ ذلك بالتالي على أن هذا السؤال بإيحاء منه عليه السلام ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ كان سؤالا حتمياً .

**نفوس الاخوة غير صافية تجاه الشقيقين :**

قال تعالى:﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثمّ استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله

نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ، قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شرٌ مكانا والله أعلم بما تصفون﴾ .

لقد كان طبيعيّاً أن يبدأ يوسف بتفتيش أوعية الإخوة قبل الشقيق .

كما كان طبيعيّاً أن توجد السّقاية في وعاء الشقيق .

فما ردّ الفعل عند الإخوة ؟ قال تعالى: ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ .

ونلاحظ على هذا القول ما يلي :

١ ــ هذا القول على لسان الإخوة ، دليل على أن الخدعة قد انطلت عليهم ، وأن تنفيذها(لغاية في الاتقان . فهذا قول واثق من أن الأمور كلها تسير سيراً طبيعياً وأن شقيق يوسف سارق فعلا .

٢ ــ أخرج هؤلاء الإخوة قولهم في يوسف وشقيقه في صورة المتحقّق من سرقة كل منهما ، وكأنهم قالوا إن سرق بنيامين الآن فلا غرابة في ذلك ، إذ إنّه يحذو حذو شقيقه يوسف ( كبرت كلمة تخرج من أفواههم ) .

٣ ــ من حقّ الإخوة أن ينزعجوا لهول الصدمة ، بسبب ظاهر السرقة الذي ثبت . ولكننا لا نجدهم في هذا الظرف العصيب ، يتحدّثون كإخوة ، ولكن كأعداء متباعدين متباغضين .

ولو أن هناك شيئاً من مودة لأخيهم ، لكان منهم كلام غير الذي جرى على لسانهم تماماً .

ومهما كان تأثر الإخوة مما يجري ؛ فليس من حقهم مطلقاً أن يكون هذا تعليقهم الذي أخذ مأخذ الشّماتة .

٤ ــ حينما جرى هذا القول على ألسنتهم لم يكونوا متمثلين بعدُ للعهد الذي سبق أن آتوه والدهم ليأتنّ بأخيهم إلاأن يحاط بهم . ففهم من

كلامهم أن أخاهم يستحقّ ما يحلّ به بسبب سوء صنيعه .

٥ ـ كان الإخوة متهيئين بسبب حسدهم ليوسف لتذكّره في كلّ ظرف سيء . وعلى الرّغم من طول العهد بيوسف إلا أنه كان قريباً من ذاكرتهم جميعاً في هذه اللحظة العصيبة .

٦ ـ لم يكن الإخوة ليتورعوا عن قذف المظلوم يوسف بالسرقة ، وأن يلبسوه ما ليس له .

٧ ـ يبدو سوء طويتهم من مساواتهم أخذ صنم يُعبد من دون الله والتخلّص منه ، وهو العمل الذي قام به يوسف . بظاهر السرقة التي لصقت ببنيامين .

٨ ـ يبدو سوء طويتهم من مساواتهم العمل الذي يقوم به غلامٌ صغير غير مكلف بالعمل الذي قام به في الظاهر رجلٌ في حدود الثلاثين من عمره .

٩ ـ يبدو من قولهم : « له » بأنهم كانوا ما زالوا مصرّين على اعتبار يوسف وشقيقه كتلة قائمة بذاتها ، بينما هم جميعاً يمثلون كتلة أخرى .

١٠ ـ لم يجيء على لسانهم لفظ الأخ معرّفاً ، فلم يقولوا : فقد سرق أخوه من قبل . ولكن جاء منكراً « أخ له من قبل » لأن الحاضرين ، في اعتقادهم ، يجهلون أن له شقيقاً اسمه « يوسف » ثم إن عهدهم به قد طال ، ولعلهم كانوا يعتقدون أنه مضى كأمس الدّابر .

والذي يساعد على هذا الفهم قولهم : « من قبل » .

ومن يدري ؟ ربما كان لإحساس الإخوة ببشاعة العمل الذي قاموا به تجاه يوسف ، وشعورهم بالخزي من جرّاء ذلك ، دور في مجيء الأخ منكراً وليس معرّفاً ، فكأنهم حينما يُضطرون إلى الحديث عنه يلمسونه برؤوس ألسنتهم .

ومن يدري أيضاً ؟ ربما خافوا أن يطلب العزيز هذه المرة منهم . بناءً على

هذا القول ، أن يأتوه بأخ آخر لهم من أبيهم إن أرادوا الطعام مستقبلا . ألم يطلب مثل هذا الطلب منهم في المرة الأولى ؟

ولكن المسألة مرت هذه المرة بسلام ، لأن يوسف الذي سيبقي شقيقه عنده قد ضمن عودة إخوته إليه مرة ثالثة ، لأنه كان على يقين من أن والدهم سيرغمهم على ذلك .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التالية من الآية :﴿فأسرها يوسف في نفسه ، ولم يبدها لهم﴾ فإنا نجد ضمير التأنيث من « فأسرها » و « لم يبدها » قد استنفد شيئاً من جهد المفكرين . فذهب البعض مثلا إلى أنه يعني الكلمة أو المقالة التي تمتم بها يوسف في قرارة نفسه ، والتي تشكل الجزئية الثالثة من الآية ﴿قال أنتم شرمكاناً ، والله أعلم بما تصفون﴾ .

وذهب بعضهم إلى أن ضمير التأنيث يعني الحزازة التي حدثت في نفسه من قولهم(١) وكراهية مقالتهم(٢) .

ونحن إلى الرأي الأخير أميل . لمـــاذا ؟

لأن قولهم عن يوسف:« فقد سرق أخ له من قبل » تهمة لا يُطيق احتمالها الإنسان العادي ، فكيف بنبي الله يوسف ؟ .

ومع ذلك فقد كظم غيظه ، وتجرّع مرارتها عليه السلام ، وأسر الحزازة في نفسه ، ولم يُبْدِ الكراهية لهم امتثالا منه لإرادة الله تعالى ، التي لم تأذن له بعد في كشف النقاب لهم عن حقيقة نفسه .

وهكذا يضرب يوسف عليه السلام المثل الأعلى في الحِلْم .

وبناءً على هذا الرأي تكون الجزئية الأخيرة من الآية ﴿ قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ مستقلة بذاتها . والآن حان الانتقال إليها .

إن المتأمل لهذه الجزئية ينتهي إلى أنها ذات شقين :

(١) انظر البحر المحيط مثلا ٥/٣٣٣ .
(٢) البحر المحيط ٥/٣٣٤ .

الأول: «أنتم شرّ مكاناً» . والثاني: { والله أعلم بما تصفون } .

وحينما نتلو الآية كاملة بكل جزئياتها { قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شرّ مكاناً ، والله أعلم بما تصفون } يتضح أن الشق الأول من الجزئية الأخيرة « أنتم شرٌّ مكاناً » ردُّ فعل من يوسف على إخوته الذين تضمن تعليقهم القول:{ إن يسرق } والمراد « إن يسرق بنيامين الآن في الحقيقة . كما يتضح أيضاً أن الشق الثاني من الجزئية الأخيرة {والله أعلم بما تصفون} ردّ فعل من يوسف على إخوته الذين جاء بعد تعليقهم السابق مباشرة القول : {فقد سرق أخ له من قبل} . والمراد بطبيعة الحال «فقد سرق شقيق له اسمه يوسف من قبل .

فكأن الجزء الأول من التعليق خاص ببنيامين .

والجزء الثاني منه خاص بيوسف .

وكذلك كان رد الفعل عند يوسف ، فإن شقّي الجزئية الأخيرة ردّ فعل للحزازة التي تولدت في نفسه لتعرّض الإخوة لشقيقه وله على التوالي .

ومعنى { أنتم شرٌّ مكاناً } أنتم في الحقيقة شرّ منزلةً من أخيكم بنيامين الذي تشمّتم به بسبب ظاهر السرقة التي اعتقدتم ببساطة حقيقتها .

وإن السبب الذي من أجله أنتم تحتلون هذه المنزلة ، هو ما سبق أن قمتم به معي حينما جعلتموني في غيابة الجب وأنا صغير السن حقاً بقصد التخلُّص مني حسداً منكم لي وبغياً عليّ .

إنكم قد استعظمتم هذه السرقة التي سيتضح لكم مستقبلا أنها خدعة قد انطلت مني وأخي عليكم ؛ إذ يأبى الله تعالى أن يكون ابن نبي الله يعقوب وأحبُّ أبنائه إليه بعدي سارقاً . ولم تستعظموا ما قمتم به تجاهي من محاولة إزهاق نفس حرم الله قتلها إلا بالحق .

كيف انطلت عليكم ، وأنتم الأذكياء الألمعيون ، نسبة السرقة إلى ابن من أبناء يعقوب نبي الله ؟

إن الذي جعل تهمة كهذه تجوز عليكم أنها صادفت هوى في أنفسكم ، ووجدت تربة صالحة في أفئدتكم .

ومعنى ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ الله تعالى ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، أعلم بحقيقة كذبكم الممثل في زج أخيكم من أبيكم بتهمة السرقة علناً وعلى رؤوس الأشهاد ، دون أن تتحرك ضمائركم وتحول بينكم وبين زج ابن من أبناء نبي الله يعقوب ، وأخ لكم ، بهذه التهمة الخطيرة التي لا يمكن أن تصدر من ابن نبي لم يطل ما بينه وبين نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام .

إن الله جلّ وعلا أعلم بحقيقة ما قلتم مما لم ترتح نفسي إليه ، ولم ترض عنه بل وترفضه رفضاً باتاً عنيفاً .

ويبقى بعد ذلك سؤال مهم : هل قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿أنتم شرٌ مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ في قرارة نفسه أم قاله علناً وعلى رؤوس الأشهاد .

وفي سبيل الإجابة نتساءل : لو فُرض أن يوسف عليه السلام ، قال ذلك لإخوته علناً ، فما الذي يمكن أن يفهمه الإخوة من ذلك ؟ وهل هُم مهيأون لتلقي كلام كهذا ؟ أم أنه كلام يعتبر طفرة ليس لها مقدمة تهيّيء لها وتفضي إليها .

والذي يبدو لنا ، والله أعلم ، أن الإخوة لو سمعوا هذا الكلام من يوسف لما خطر على بالهم بتاتاً المعنى الذي سبق أن أشرنا إلى أن يوسف أراده . وبالتالي لاعتبروا هذا الكلام هجوماً سافراً عليهم . ودفاعاً حاراً عن أخيهم يوسف الذي اتهموه بالسرقة . وكل ذلك لا مبرر له تماماً في اعتقادهم .

والذي يجعله لا مبرر له أن العزيز كان معهم قمة في حُسن المعاملة ولطف الحديث . فمن غير المعقول في اعتقادهم ، وهم الذين تورّطوا بسبب أخيهم في هذه المشكلة ، أن يفاجئهم العزيز بهذا الكلام الجافّ الخشن ، الذي يصوّر

العزيز وقد تحول كلامه من غاية في اللطف إلى غاية في الخشونة والعنف .

ولا يمكن بحال من الأحوال أن نعتبر الحوار الذي دار بين المسؤولين بالبحث عن الصواع ، وبين الإخوة توطئة لكلام كهذا من العزيز . فلم يكن طرفاً في ذلك الحديث وإن كان بإيحاء منه .

ثم إن الإخوة لو فرض أنهم سمعوا هذا الكلام من العزيز الذي لا يمكن أن يصدر إلا من يوسف ، فهل معنى هذا أنهم سيتبينون حقيقة يوسف ؟ ولكن ذلك شيء لم يأذن به الله تعالى بعد .

وهل يستطيع يوسف أن يتفوّه بشيء يُفضي إلى ما لم يأذن له الله تعالى به ؟ لا . لن يستطيع .

وهل يُعجز نبيّ الله يوسف الحليم أن يكظم غيظه ويتحكم في لسانه ؟

لا . . لا يعجزه هذا ولا ذاك .

إذن ننتهي بعد ذكر كل ما سبق ، إلى أن يوسف إنما قال: ( أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون ) في قرارة نفسه وأن الإخوة لم يسمعوا ذلك منه أبداً .

ويكون بالتالي هذا القول في السرّ منه: ( أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون) امتداداً للحزازة التي تولّدت في نفسه من اتهامهم له بالسرقة وكراهة ما قالوا عنه بصدد ذلك ، دون أن يُبين لهم ببنت شفة عن هذا وذاك ؛ كما قال تعالى: ( فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم ) .

ومما قد يساعد على أن الإسرار كان من نصيب القول كما كان من نصيب الحزازة عدم ابتداء الجزئية الأخيرة بواو العطف مثلا ، فلم تجيء في هذه الصورة مثلا : وقال أنتم شرٌّ مكاناً . . ، كي يقال إن الواو تعني حالا آخر .

وإذا كان يوسف قد جعل كلامه الذي يصف بالحق فيه إخوته ويدفع

التّهمة عنه ، قد جعله في نفسه سراً ، فإنه كان بإلهام من الله تعالى على يقين من أنه قادرٌ على أن يكيد لهم بالفعل جزاءً وفاقاً لسوء صنيعهم معه بالإيذاء سابقاً ، وتهمة السرقة لاحقاً .

## الانكسار النفسي يتمكّن من الإخوة :

قال تعالى: (قالوا يا أيّها العزيز إنله أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنّا نراك من المحسنين) .

وأول ما يلاحظ على هذه الآية أن الإخوة لم يفكروا مطلقاً في مناقشة نوع الحكم الذي يعرفون أن أخاهم يستحقّ أن يطبق بحقه .

وهذا دليلٌ على أن أبناء يعقوب عليه السلام قمة في التمسُّك بأهداب الدين ، ما دام الأمر لا يتعلق بيوسف وشقيقه .

وهذه الآية تدل أيضاً على أن الإخوة الذين شطحوا أول الأمر إلى اتهام يوسف بالسرقة ، لأنه شقيق أخيهم المتهم بها ، قد عادوا سريعاً للتنبّه إلى حقيقة المشكلة التي تورطوا فيها .

إنهم سيعودون دون أخيهم من أبيهم .

وأين الموثق الذي أعطوه والدهم ؟

وكيف سيتلقى يعقوب هذا النبأ ؟

وهل سيصدق قولهم في وصف ما حدث فعلا ؟

ومتى يمكن ليعقوب أن يقتنع بأن ما حدث يدخل تحت استثنائه (إلا أن يُحاط بكم) وأنه قضاءٌ من الله تعالى وقدر لا يد لهم فيه ولا قدرة لهم على دفعه ؟

وهنا نجد الإخوة يبدأون حديثهم بالقول:(يا أيُّها العزيز) . ولا يخفى أن هذا القول يشمل تقديراً كبيراً من الإخوة للعزيز ، وإكباراً عظيماً منهم له.

وربما يقف وراء ذلك أن الإخوة قد تلقوا من العزيز كلّ إكرام وتبجيل ، ولم يسمعوا منه هُجراً من القول ، بما في ذلك هذه الجزئية التي رجحنا أنها قيلت في السر: ﴿قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ .

وواضح أنه يجيء على لسان الإخوة مباشرة « إن له أباً شيخاً كبيراً » ولا يجيء على لسانهم : إن لنا أباً شيخاً كبيراً .

فلماذا جيء بضمير المفرد الغائب هنا ؟

والجواب على ذلك أن هذه المسألة تخصّ بطريق مباشر أخاهم من أبيهم فقط ، فهو الذي سيبقى في مصر . أما هم فأحرار يفعلون ما شاءوا .

ثمّ إن هذه الجزئية التي فيها ضمير المفرد الغائب ﴿إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ حينما يجيء بعدها مباشرة هذه الجزئية ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ نفهم أن هذا الأخ الذي يستحق الاسترقاق بسبب ما اقترف ، خليق بأن يفتقده والده الشيخ الكبير الفاني ، وأن يحزن لعدم عودته إليه لأنه يحبّه حباً جماً .

ونستطيع أن نفهم هنا بأن هذا التلميح بحبّ يعقوب لأخيهم أكثر من حبه لهم ، لا يمكن أن يكون بحال نهاية ما كان يدور بخلد الإخوة ، بل يجب أن تكون في تلك الأثناء صدورهم تغلي حقداً على السبب الأول لكل بلاء حل بهم ، ألا وهو أخوهم من أبيهم ، أعني يوسف .

فما الذي جعل لبنيامين ، أصغر أبناء يعقوب ، كل هذه المنزلة عند والده ؟

غياب يوسف ، وهم يعرفون تماماً السبب في غيابه ، ألا وهو حسدُهم له .

وإنما لجأ الإخوة في التعبير عن حب يعقوب لبنيامين ، إلى الإشارة الخفية ، لأنهم إنما يخاطبون العزيز ، الذي عنده علم منذ الرحلة الأولى ، بالمنزلة التي يحتلها هذا الابن في قلب والده . وإلا كيف طلب منهم ، بل أصر أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم إن أردوا طعاماً مرة ثانية ؟

ثم هم قد جاء على لسانهم في حوارهم مع العزيز قوله تعالى:﴿ قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون ﴾ فدلّ ذلك على المنزلة الرفيعة لهذا الابن في قلب والده .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان الإخوة ﴿ إنّ له أباً شيخاً كبيراً ﴾ نتبين أن الإخوة قد أدركوا ما يعنيه عدم عودة أخيهم معهم بالنسبة لأبيهم الشيخ الكبير الفاني ، وإذا بهم في لهجة كلها استعطاف يصفون حال هذا الوالد بأنه شيخ وبأنه كبير .

والحقيقة أن إحدى هاتين الصفتين تفي بالغرض ، خاصة وأن العزيز يعلم يقيناً أن أصغر أبناء يعقوب في حدود الثلاثين من عمره إذن يرجح أن يكون والد الاثنى عشر ولداً شيخاً كبيراً .

ولكن الإخوة إنما أصروا على تضمين كلامهم هاتين الصفتين ، لأنهما في اعتقادهم أبلغ في الدلالة ، وأقوى في الاستعطاف .

ويلاحظ أن هناك أكثر من عامل جعل أنفس الإخوة يخيم عليها مسحة من انكسار نفسي . وقد ابتدأت بالحاجة الملحة للطعام ، وها هي ذي تتوّج الآن بتهمة السرقة التي تورط في ظاهرها أخوهم ، فكأنهم قابلوا الإحسان بالإساءة .

ويبدو هذا الانكسار النفسي في القول الذي جاء على لسانهم:﴿ يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾ .

حقاً إن هذه الجزئية « يا أيها العزيز » تصوّر المكان الطبيعي العالي الذي يحتله العزيز في قلوب الإخوة وأنفسهم .

ولكن الأنفس نفسها منكسرة الآن وبالتالي فإن هذه الجزئية « يا أيها العزيز » تمثل ارتفاعاً سامقاً لمكانة العزيز ، أظهره في ذلك العلو انكسار أنفس الإخوة وانخفاض معنوياتهم .

وهي جزئية تجيء على لسانهم هنا لأول مرة ، كما تجيء هي نفسها في الرحلة الثالثة .

« قال تعالى: ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ .

ويلاحظ أن انكسار الإخوة النفسي في الرحلة الثالثة أقوى فكأن الإخوة إنما استعملوا هذه الجزئية حينما كانت أنفسهم منكسرة .

وحينما نتأمل هذا القسم من الكلام ﴿إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ وهذا القسم ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ نتبين أن الإخوة الذين ينطلقون من نقطة الضعف المعنوي ، يجعلون القِسْم الأوّل المرقق للقلوب الملين للأفئدة ، توطئة للقِسْم الثاني الذي يشكل طلبهم من العزيز ، ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ .

إنهم لا يجرؤون مطلقاً على تبين طلبهم أولا ، ثم ذكر السبب ، إن شاءوا ، ثانياً . ولكنهم يبينون السبب أولا ثم الطلب ثانياً كما أوضحنا .

ويختم الإخوة كلامهم للعزيز بهذه الجزئية التعقيبية ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ وواضح أن صفة الإحسان التي خلعها الإخوة على العزيز تشمل تصرفات العزيز معهم وكلامه لهم في كل وقت .

والذي يساعد على هذا الفهم أن الفعل « نرى » جاء في صيغة المضارع ، والمراد « نراك دائماً من المحسنين .

وإن هذه الجزئية ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ يمكن أن تكون دليلا يضاف إلى الأدلة السابقة على أن هذه الجزئية على لسان يوسف خطاباً لإخوته ﴿أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ كانت في السر لا في العلن . وإلا لما جاءت هذه الجزئية على لسان الإخوة .

وهذا الطلب على لسانهم بأن يأخذ العزيز واحداً منهم بدلا من أخيهم ، لا يتفق مع روح الشريعة الإبراهيمية كما هو معروف ، ثم إنهم لا يودون

هذا الأخ فليس طلبهم ذلك من أجل الأخ بل من أجل أبيهم . وهذا دليل على انزعاج الإخوة البعيد المدى على والدهم الذي سيتلقى ولا شك نبأ جللا .

ويبقى بعد ذلك سؤال مهمّ هو : من صاحب هذه الفكرة بأخذ العزيز واحداً منهم بدلا من أخيهم ؟ هل كل الإخوة أم بعضهم أم واحد منهم ؟

والجواب على ذلك أن سياق الآية يشير إلى أن صاحب هذه الفكرة جماعة وليس واحداً بعينه .

وبما أنه قد ثبت أن الذي أزعج الإخوة هو والدهم ، وكانوا جميعاً ودون استثناء بارّين به ، فليس هناك ما يمنعنا أن نعتقد أن كل واحد منهم كان مستعداً لو أجابهم العزيز لطلبهم ، أن يكون الشخص الذي يأخذه العزيز مكان الأخ الأصغر .

كما أنه ليس هناك ما يمنعنا أن نعتقد أن أكثر هؤلاء الإخوة استعداداً للقيام بهذه التضحية دون أدنى تردد هو الأخ الأكبر .

أليس هو الذي رفض العودة إلى أبيه بعد أن رفض العزيز تلبية طلب الإخوة ؟ وما دام قد قام بهذه التضحية رحمة بأبيه دون أي مقابل ، فمن باب أولى أن يقوم بها بمقابل لو صح ذلك .

ويبقى بعد ذلك سؤال أخير هو ما الذي دفع الإخوة إلى طرح هذا الطلب بالفعل أمام العزيز ، مع علمهم القطعي أنه يتعارض في جوهره مع روح الشريعة الإبراهيمية ؟ هل هو الأزمة النفسية التي وجد الإخوة أنفسهم فيها أم أنهم ليسوا على يقين من حقيقة الدين الذي يعتنقه العزيز ؟ أم هما معاً ؟

والذي يبدو لنا والله أعلم ، أن للأزمة النفسية التي فيها الإخوة دورها البعيد في هذا الطلب .

ولو أن الإخوة نظروا للمسألة من زاوية أخرى ، لكان خليقاً بهم ألا يقفوا عند هذا الحد ، وأن يتخطوه إلى المطالبة بتنفيذ حدّ السارق في عُرف المصريين وليس الحدّ في الشريعة الإبراهيمية .

ونستطيع أن نفهم أن الإخوة كانوا ينظرون إلى العزيز من جهة اعتقاده نظرة إكبار وإجلال .

ومن الأدلة على ذلك ما جاء على لسانهم في الرّحلة الثالثة خطاباً للعزيز ﴿ وتصدّق علينا ، إن الله يجزي المتصدّقين ﴾ .

وإذا كان جواب يوسف ، الممثل في هذه الآية ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون ﴾ أليماً للإخوة ، إلا أنه لم يكن غريباً عليهم ولا مفاجئاً لهم كل المفاجأة . لأنهم يعرفون تماماً أنهم قاموا بذلك الطلب بينما يحدوهم يأس ميت . فهو آخر ورقة يلعبون بها في هذه المسألة . ثم هم على يقين من عدل العزيز . والعدل يحتّم عليه أن يقول ما قال .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان يوسف ، يستوقفنا لأول وهلة ، قوله : ﴿ معاذ الله ﴾ أي عياذاً بالله من فعل السوء(١) وهو القول الذي استعمله بحذافيره حينما راودته امرأة العزيز ، قال تعالى: ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

وحينما نتأمل السياق الذي استعمل فيه في المناسبة الأولى ، نتبين أنه موقف الرفض العنيف لطلب امرأة العزيز منه أن يرتكب الفحشاء .

وحينما يستعمل يوسف عليه السلام ، هذا القول نفسه ، البعيد الدلالة ، ردّاً على طلب إخوته ، فذلك دليل واضح على رفضه العنيف لطلب الإخوة .

ويلاحظ أن يوسف لا يستخدم هذا القول في غير هاتين المناسبتين ، بل إنه لم يأت في القرآن الكريم في غير هذين الموضعين .

ولا يخفى أن ليوسف الحق كل الحق في استعمال هذا القول في المناسبتين.

---

(١) البحر المحيط ٥ ـ ٢٩٤ .

إنه في المناسبة الأولى يستعيذ بالله تعالى من ارتكاب الفاحشة .

وفي الثانية من ارتكاب الظلم .

ولا يخفى أيضاً أن الإخوة على يقين من عدالة الحكم الذي صدر بحقّ أخيهم ، بل الذي أصدروه هم أنفسهم بحقّه ، بسبب ظاهر السرقة التي ثبتت عليه .

ويلاحظ أنه يجيء على لسان يوسف ﴿ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ولا يجيء مثلا : إلا من سرق متاعنا ، أو أخذ متاعنا . وإن الإخوة يفهمون من قول العزيز شيئاً بينما يريد يوسف شيئاً آخر .

وتأتي بعد ذلك أخيراً الجزئية التعقيبية ﴿ إنا إذن لظالمون ﴾ وهذا شيء طبيعي ، لأنه حينما يؤخذ بريء بدلا من الجاني ، لأي سبب من الأسباب فإن ذلك ظُلم ما بعده ظلم .

وهذا هو ما تقول به الشريعة الإبراهيمية ، وما تقول به كل بصيرة نيّرة.

وبما أن ما نطق به يوسف هو العدل ، وهو ما تقول به الشريعة الإبراهيمية ، فإنا لا نجد الإخوة بعد ذلك ينبسون ببنت شفة . لأن هناك توافقاً تامّاً بين ما يقوله العزيز وما يقتضيه العدل والشرع .

وقد قال تعالى في سورة النجم(١) ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ .

**انشقاق كبير الاخوة على اخوته :**

بعد جواب يوسف البليغ الموجز العادل ، يتمكن اليأس الكامل من نفوس الإخوة ، ذلك اليأس الذي نعتقد أنه قد دبّ إليهم منذ أن قدّموا طلبهم ، الذي يعتقدون يقيناً أنه ليس من العدل في شيء .

---

(١) ٣٦ – ٤١ .

قال تعالى: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرّطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾ .

ونستطيع أن نفهم من « استيأسوا » اليأس الذي ليس وراءه يأس .

وفي الإمكان أن نفهم المبالغة في ذلك ، قياساً على ما ذهب إليه الزمخشري في « استعصم » من قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ .

وإن في هذه السورة ميلا إلى استعمال هذه الصيغة ، ذات الدلالات المختلفة ، ونعتقد أن من أسباب ذلك نقل إحساس الشخصيات العميق ، وتفاعلها الإيجابي الفعال مع الأحداث .

وبينما كان الإخوة الذين تنحوا يتدارسون المسألة بعد اليأس القاتل الذي تمكن منهم .

وبينما كان كلُّ واحد منهم متلهفاً كي يسمع من أخيه رأياً سديداً لمعالجة هذه القضية العويصة التي تستهدف في الحقيقة يعقوب والدهم ، الشيخ الكبير الفاني .

إذا بانشقاق بين هذه المجموعة من الإخوة ، ينفجر مدوّياً كالإعصار في القول الذي جاء على لسان كبيرهم وأعقلهم الذي عصوه سابقاً وأصروا على التخلّص من يوسف ، فاقترح إنقاذاً لحياته جعله في غيابة الجب بدلا من الرأيين القاضيين بقتله أو طرحه أرضاً .

وقد يقول قائل : لماذا نصرّ على أن القائل أكبرُ الإخوة ؟ وإن لفظ كبير ، هو الذي جاء في الآية القرآنية الكريمة .



حصل خطأ في ترقيم الصفحات ٢٤٦ - ٢٤٩ الطبع حسب [illegible] وقد صوبت الأرقام [illegible] صحيحة

والجواب عن ذلك أن العادة قد جرت بأن يستعمل القرآن الكريم هذه اللفظة ويريد الأكبر أو الأكبر أهمية .

ولأن المنتظر أن استيقاظ الضمائر إنما يبدأ عادة بالأكبر سناً والأكثر تجربة .

لهذا نرى أن هذا السبق ما كان ينبغي أن يفوت الأكبر . خاصة وأنه سبق أن قُدم اقتراح لإنقاذ حياة يوسف وجعله في غيابة الجب ، قبل سنوات وسنوات ، ومثل هذا الاقتراح ينتظر ممن يعتبر في تلك الأثناء كبير إخوته أو أكبرهم بتعبير أدق .

ومن هنا ذهبنا إلى أن الأخ الأكبر هو صاحب الاقتراح الثالث .

ومن هنا ذهبنا أيضاً إلى أنه هو المراد بقوله تعالى: « قال كبيرهم . . . » والله أعلم .

وفي ضوء هذا الموقف الجديد لأكبر الإخوة نستطيع أن نقول : إن أبناء يعقوب عليه السلام ينقسمون في الظاهر أربعة أقسام ، يمثل ثلاثة منها يوسف وشقيقه والأخ الأكبر . ويمثل بقية الإخوة القسم الأخير .

بينما ينقسمون في حقيقة الأمر ثلاثة أقسام فقط .

ومع أننا نستطيع أن نستنتج أن الأمور النظامية اتخذت أمام الملأ بحق الشقيق ، الذي ثبت عليه ظاهر السرقة على رؤوس الأشهاد ، إلا أن الشقيقين ما لبثا أن التقيا . واستطاع يوسف حينئذ أن يستمتع بأخيه كما يشاء .

ونستطيع أن نفهم أن قرار الأخ الأكبر بالبقاء في مصر . ورحيل الإخوة . واجتماع شمل الشقيقين ، كل ذلك تمّ في أقصر وقت ممكن .

لمـــاذا ؟

لأن هؤلاء الإخوة ، كما سبق أن أشرنا ، كانوا يشكّلون جزءاً طيباً

من القافلة . وبمجرّد أن صدر بحق الأخ الأصغر الحكم الذي يستحقه ، لم يكن هناك مبرّر لتأخر القافلة أكثر مما تأخرت .

كما نستطيع أن نفهم أن القافلة إنما توقفت عن السير حتى ثبتت التهمة على الأخ الأصغر ، وجاز أن يتخذ من أهلها شهوداً ، على هذه القضية ، بعدها انطلقت لا تلوي على شيء .

فإن طلب الإخوة من العزيز أخذ واحد منهم بدلا من أخيهم ، ورفض الطلب ، وقرار الأخ الأكبر ، وتزويده للإخوة بما يقولونه لأبيهم . كل ذلك لم يستغرق وقتاً طويلاً ؛ إذ ما لبث الإخوة أن وجدوا أنفسهم مع القافلة متجهين ، دون الأخوين الأكبر والأصغر ، صوب والدهم الحبيب يعقوب عليه السلام .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان الأخ الأكبر ، وقد صار حال الإخوة إلى يأس ، وينبغي أن يكون حاله من حالهم ، وربما أكثر ، فإنا نجـــد حديثه يتناول كلاً من بنيامين ويوسف على التوالي .

إنه لا يجهل أن ما حدث للصغير يدخل تحت استثناء يعقوب ﴿ إلا أن يحاط بكم﴾ ، وأنه لا دخل له هو وإخوته في تصرف الشقيق .

ولكن ضميره الذي استيقظ ينقله سريعاً إلى مسألة من النوع نفسه ، لهم كلٌّ دخل فيها ، مسألة يوسف « ومن قبل ما فرّطتم في يوسف » .

وحينما نتأمل الحديث الذي يخص بنيامين ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ فإنا نجده الحديث الموحي المشع ، فإن تمامه الذي لم يفصح به : لتأتنه بالأخ الأصغر إلا أن يحاط بكم .

ولكن الإخوة بالإجماع يعرفون معنى هذه الومضة ، وإن كان للأخ الأكبر فضل تمثل ملابسات أبعاد المسألة وبلورتها في هذه العبارة الموجزة الموحية .

ويبدو أن الأخ الأكبر أكثر الإخوة تأثراً لما حدث وتألماً لمصير يعقوب المؤكد حزناً على الشقيقين ، إن لم يتداركه أرحم الراحمين برحمته .

وكأنه لفرط تأثره لمـــا حدث يعتقد أن الإخوة قد نسوا الموثق الذي آتوه والدهم . فذكروا السرقة وماحلّ بأخيهم مجرداً عما سيحدث لوالدهم . وهذا في اعتقاده أهمّ ما في الأمر .

إنهم لم يأبهوا جميعاً لما حل بيوسف الذي لم يكن يستحق شيئاً مما حل به ، فهل سيأبهون لما يحل بشقيقه الذي نال الجزاء العادل ؟ وفوق ذلك هما سواء في كره الإخوة لهما .

وعلى الرغم من عدم بعد العهد بالقول:﴿ إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل ﴾ إلا أننا نجد الأخ الأكبر يستيقظ ضميره فجأة وفي عنف ، وكأنه يريد بقوله وفعله التكفير عن مشاركته لإخوته فيما حلّ بالشقيقين . تلك المشاركة وإن كانت فيما يخصّ يوسف ، توصف بأنها سلبية ، إلا أن السكوت يوحي بالرضا خاصة إذا كان السكوت عن أذى يلحق بأخ .

ونقول مثلا : هب أن هذا التعليق : ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ قد صدر من بعض الإخوة دون بعض ، ولعل الذين صدر منهم ذلك هم الذين اقترحوا قتل يوسف مثلا ، وبطبيعة الحال لم يكن الأخ الأكبر منهم ، فلماذا سكت عن كلام جارح كهذا ؟ بدليل أن كلام يوسف في نفسه ردّا عليهم « أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون » شامل لهم جميعاً ، وفيهم الأخ الأكبر .

إن السكوت في مثل هذه المناسبة على الباطل دليل على الرضا عنه .

والشيء المهم الذي نود التنويه به هو أن الشرارة الأولى التي جعلت قول الأخ الأكبر وفعله فريدين متميزين مصير يعقوب المرتقب . لهذا جاء على لسانه ﴿ ألم تعلموا أن أباكم ﴾ .

ومن هذه النقطة ، نقطة رحمة هذا الابن البار بأبيه الشيخ الكبير الفاني انبجست عين الرحمة في نفسه كي تشمل كلا من الشقيقين الصغيرين ، سيئي الحظ في نظره : يوسف وبنيامين .

وإذا كان في الجزئية الأولى التي تخص الأصغر ، قد أشار إلى الموثق ، فإن ضميره المستيقظ ، ليتألم مما فرط منه ومن إخوته بحقه سواء بالإيذاء المباشر منهم ، أو بالسكوت منه عن ذلك ، ذلك الإيذاء الذي نص عليه صراحة القول الذي جاء على لسان يوسف مخاطباً شقيقه ﴿ قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ .

ولا يخفى أن الجزئية الخاصة بيوسف ﴿ومن قبل ما فرّطتم في يوسف﴾ تحمل الإخوة مسؤولية التفريط في يوسف وليس هو .

فهم الذين أرادوا قتله أو طرحه أرضاً ، أما هو فقد اقترح لإنقاذ يوسف جعله في غيابة الجب .

وإذا كان هذا القول بجزئيته على لسانه: ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ متعلقاً بالماضي . فإن هذا القول على لسانه : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ﴾ متعلق بالمستقبل .

وإذا كنا تبينّا العَلاقة بين هذه الجزئية ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ وبين هذه الجزئية ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ فإنا قبل تبيين العَلاقة بين هاتين الجزئيتين وبين ما جاء بعدهما ، نود تبيين نوع من عَلاقة بين هذه الجزئية ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ والآية العاشرة في هذه السورة قال تعالى: ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

إن هذا الأخ ، الذي وضع الله تعالى في قلبه الكمية القليلة الضرورية

من الود ليوسف ، والذي سبق أن اعتبرناه حجر الزاوية في قصة يوسف يرفض فكرة قتله أو طرحه أرضاً ، مكتفياً بحسده السلبي ، ويجيء على لسانه « وألقوه » وليس « ولنلقه » كما يجيء « إن كنتم فاعلين » وليس إن كنا فاعلين .

وسبق أن انتهينا إلى أنه كان ملازماً الموقف السلبي حتى تمت عملية التنفيذ .

والآن حينما يستيقظ ضميره من غفلته ، يحاسب نفسه حساباً دقيقاً إلى أبعد الحدود ، خاصة وأن السبب في إيقاظ الضمير من نوع تأنيبه . فيصدر على نفسه حكماً قاسياً .

وقبل ذلك يجيء على لسانه « ومن قبل ما فرطتم » يريد إخوته ، وليس : ومن قبل ما فرطنا ، إنهم هم الذين فرطوا في يوسف وليس هو .

والآن حان الانتقال إلى تبيين العلاقة الجديدة .

الحقيقة أننا نربط ربطاً لا نهائياً بين الشرط الأول « حتى يأذن لي أبي » وبين هذه الجزئية ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ .

كما نربط ربطاً لا نهائياً أيضاً بين الشرط الثاني ﴿ أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ وبين هذه الجزئية ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ وهي بدورها ترتبط بالآية العاشرة التي أفضنا الحديث فيها من قبل (١) .

إن العلاقة واضحة بين الشرط الأول والجزئية التي إليها أشرنا

فقد كان الأخ الأكبر قد أعطى لأبيه ضمن إخوته عهداً بأن يعودوا بشقيق يوسف معهم ، وغادروا به على هذا الأساس .

وبسبب ظاهر السرقة لا يمكن العودة بهذا الشقيق .

لذا فإن هذا الأخ يستفحل تلقي يعقوب النبأ بعدم مجيء الشقيق استفحاله تلقي يعقوب نبأ أكل الذئب يوسف .

---

(١) ص ١٣٩ وهي مندرجة تحت عنوان «إخوة يوسف لأبيه ليسوا شرا محضا» .

لذا هو يربط العودة دون هذا الشقيق ، بإذن والده له بالعودة ، وهذا واحدٌ من شرطي العودة .

إن هذا الأخ عنده إحساس باحتمال هذا الإذن من الأب ، لأنه على يقين من أنه ، هو وإخوته ، ليس لهم يد في إبقاء هذا الشقيق لدى عزيز مصر . وأن يعقوب سيدرك ، ولو بعد حين ، أن ما حدث للشقيق ، يندرج تحت استثنائه السابق حينما أخذ على أبنائه الموثق ﴿ إلا أن يُحاط بكم ﴾ وأنه قضاءٌ من الله تعالى لا يمكن دفعه .

أما العلاقة بين الشرط الثاني بالجزئية ﴿ أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ وبين هذه الجزئية من الآية ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ فقبل أن نبينها ، نود أن نعرف ، هل يمكن ربط الشرط الثاني بالجزئية التي قلنا إنها ترتبط بالشرط الأول ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ .

أو بعبارة أخرى ، هل يمكن ربط ( حتى يأذن لي أبي ) بـ ﴿ ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف ؟ ﴾ .

والجواب بالنفي .

لأننا نعرف أنه لم يحدث بعدُ لقاء بين يعقوب ويوسف من ناحية ، والإخوة ويوسف من ناحية أخرى .

ولأن يعقوب يجهل ما فعلوا بيوسف .

فانحصرت العلاقة إذن بين الشرط الأول وجزئيته التي توافقه في تقسيم الآية تقسيماً منطقياً .

والآن في سبيل تبيين العلاقة بين الشرط الثاني والجزئية التي إليها أشرنا فبالإضافة إلى أننا نستفيد من التقسيم المنطقي للآية ، وكون الشرط الثاني ﴿ أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ يوافق في التقسيم هذه الجزئية ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ فإننا نقول :

سبق أن بيّنا أن استيقاظ ضمير الأخ الأكبر جعله ينتقل بذاكرته سريعاً من الرجوع إلى والده دون الصغير ، وقد أخذ الوالد عليهم الموثق بأن يعودوا به ، إلى الرجوع دون يوسف .

هو لا دخل له هذه المرة فيما حدث للشقيق ، ولكن ضميره الذي استيقظ ينقله إلى ما حدث ليوسف مما له يد فيه .

هذا الانتقال من الحاضر إلى الماضي نتبينه أولا من قوله تعالى : ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين﴾ .

وأيُّ ماض يفرّ هذا الأخ إليه ؟

ماضيه مع يوسف ، مع كيده معه . فالضمير الحي يؤلمه ما أسرف به صاحبه في حق الآخرين ، ولو كان اقتراحاً أنقذ به حياة أخيه .

أوَ لسنا بصدد أخ قد وضع الله في قلبه الكمية الأقلّ من الود ليوسف مما لم يوضع مثله في قلب أحد من إخوته لأبيه ؟

أو ليس هو القائل : ﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾ ؟

ثمّ أليس هو القائل الآن منبّهاً إخوته مؤنباً لهم : ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ ؟

لقد كان راضياً بحسده السلبي ليوسف ، والآن يتبدّد هذا الحسد في غمرة الهموم ، وتكون من هذا الأخ توبة نصوح مضمرة ، في هذا التعبير الذي ألهمه الله تعالى إياه: ﴿أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين﴾ .

وبماذا يحكم له خير الحاكمين ؟

يحكم له على أقل تقدير بأنه صاحب الرأي لإنقاذ يوسف من القتل أو شبهه .

وكيف يتم ذلك ؟

هذا ما عنيته من قولي : إن الله عزّ وجل ألهمه بأن يقول: ﴿ أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ .

ففي هذا الإلهام نلمح استجابة الرحمن للمضطر إذا دعاه .

ونشمّ من الأفق البعيد جداً رائحة قميص يوسف الذي جاء به البشير .

ونتبين في جوٍّ تصعب فيه الرؤية الأمل غير المفصح في الله عزّ وجل في وجود يوسف ، المهيىء أنفسنا لتقبّل الأمل المُفصح المبين في قول يعقوب : (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم) .

ونود أن نقف عند قول هذا الأخ الأكبر : « لي » وإصراره عليه .

فقد كان في إمكانه أن يستغنى عنه ، ويكتفي بالقول : « أو يحكم الله » ولكنه كان حريصاً على ذلك لأن دوره السلبي بصدد يوسف غير أدوارهم الإيجابية .

وفي وجود يوسف والعثور عليه ، بإرادة الله القادر على كل شيء حكم من الله له .

كما نود أن نقف عند لفظة « خير » من قوله: ﴿وهو خير الحاكمين﴾ فإنها أبلغ لفظة تحتل هذا المكان ، لأنها تتمشى مع نفسية هذا الأخ المنكسرة ، صادق التوبة ، خالص الدعوة ، الفقير إلى رحمة مولاه ، الوحيد القادر على الحكم له .

وإن هذا الأخ ليقرن الفعل بالقول ، وقبل مغادرة إخوته له يلقنهم القول الذي يُدلون به لوالدهم والذي يعتبر في حقيقته ردّ فعل للتساؤل الذي رفعه هذا الأخ من قبل ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ ؟

قال تعالى على لسانه: ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون ﴾ .

والذي يلفت انتباهنا على هذا الكلام ، أنه يميل إلى الطول .

وإن المتأمل للقسم القصصي في سورة يوسف عليه السلام ، والأحاديث التي جرت على ألسنة الشخصيات يتضح له أن هناك مواقف محدودة أفاضت الشخصيات فيها بالحديث .

هذه المواقف على وجه الدقة كالتالي :

١ — موقف يعقوب عليه السلام من ابنه الحبيب حينما قص عليه رؤياه .

فإذا كان قد أوجز في تحذير ابنه عن قصّ رؤياه فإنه أطاله فيما يتصل بتبشير ابنه بمستقبله الديني والدنيوي الباهر ، وحمده لله عز وجل على آلائه .

وتعليل الإيجاز والإطناب أن النفس الطيبة الطاهرة المطمئنة ليعقوب عليه السلام ، لا ترتاح إلى حقيقة شعور الإخوة تجاه يوسف . لذا هي توجز وتكتفي بالقدر الضروري منه ، بينما فيما يتصل بما يسُرُّ ويُبهج هي أكثر ارتياحاً ورضاً وسعادة ، لذا هي تفيض فيه وتجنح إلى تناول الأمر من جوانبه المشرقة المتعددة .

٢ — موقف يوسف عليه السلام من الفتيين في السجن فإنه في أربع آيات ، تميل ثلاث منها للطول النسبي يمهّد بدعوة الفتيين لدين الله ، لتعبير الرؤية في آية واحدة فقط .

وتعليل ذلك أن تعبير الرؤيا وسيلة في نظره عليه السلام ، أما الغاية فالدعوة لدين الله تعالى الذي ارتضى لعباده .

٣ — الموقف الذي نرجح أنه ليوسف عليه السلام وقد ثبتت براءته بعد طول انتظار شبيه باليأس ، وذلك من قوله تعالى: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسي ، إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم﴾ .

٤ ــ موقف يوسف عليه السلام بعد أن منّ الله تعالى عليه بجمع الشمل بعد تحوّل يعقوب وآله من الشام إلى مصر ، وقد انفرد يوسف بالحديث في المشهد الأخير من القصة ، ضارباً المثل الأعلى في شكر المنعم .

٥ ــ موقف هذا الأخ الأكبر الذي نحن بصدد الحديث عنه : إذ يفيض منفرداً في الحديث الذي لا يقتصر على الحاضر بل يعود إلى الماضي كما مرّ بنا .

**ملاحظات على قول الأخ الأكبر وفعله :**

نودّ في هيئة نقاط ، أن نبيّن الملاحظات على قول هذا الأخ الأكبر وفعله :

١ ــ تضمنت الآية الكريمة لفظ «كبير» في قوله تعالى : «قال كبيرهم» الذي نتبين منه أن شخصية هذا الأخ تتطور تطوراً طبيعياً تجاه الخير والصلاح فهذا العقل الراجح هو الذي ينتظر من أكبر الإخوة سناً .

والحقيقة أنه لا غرابة في هذا الموقف منه . فقد سبق أن مثّل الخير في أول بذوره ، حينما رفض قتل يوسف بطريق مباشر أو غير مباشر واقترح إلقاءه في غيابة الجبّ .

وها هو ذا الخير يخرج شطأه الذي آزره فاستوى على سوقه ممثّلا في كلامه وفعله الدالّين على أننا بصدد نفس طيّبة دلت على أصل معدنهـــا النقيّ .

٢ ــ يجيء على لسان هذا الأخ ﴿ ألم تعلموا ﴾ وليس « أما علمتم » وحينما يجيء بعد صيغة المضارع هذه الصيغة في الماضي مع حرف التحقيق « قد » في قوله تعالى على لسانهم : ﴿ أنّ أباكم قد أخذ عليكم ﴾ فذلك دليلٌ على أن هذا الأخ يتعمّد صيغة الفعل المضارع ، التي تعكس رغبته في كون علم إخوته بما فعلوا بيوسف ، ليس مقتصراً على الزمن الماضي ، وإنما

يستمر ليغطّي الفترة الحاضرة ، وهي في نظره أهم الفترات التي ينبغي أن يكون العلم فيها حيّاً .

٣ — يجيء على لسان هذا الأخ «ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم» ولا يجيء على لسانه مثلا « ألم تعلموا أن أبانا قد أخذ علينا » .

وتفسير ذلك والله أعلم ، أنّ هذا الأخ بسبب إحساسه العميق بالورطة التي هم فيها ، قد بدا له أن إخوته ، الذين لم ير عمق إحساسه بالمسألة بادياً عليهم ، قد ظنّ أنّهم لم يتمثلوا أبعاد تهمة السرقة التي ثبت ظاهرها على أخيهم ، وأنهم يظنون أن المسألة تنتهي عند استرقاق هذا الأخ . وكأنهم نسُوا الموثق الذي أخذه منهم والدهم ، وغفلوا عن الصّدمة النفسيّة العنيفة التي سيتلقاها يعقوب عليه السلام .

لهذا نجد هذا الأخ يستعمل ضمير جماعة المخاطبين وليس المتكلمين ، وكأنه أخرج نفسه لأنه يعلم يقيناً أبعاد المسألة ، أما هُم فلا .

ولا نشك أن إحساس هذا الأخ المرهف ، هو الذي جعل هذا تصوُّره . إذ نميل إلى أن بعض هؤلاء الإخوة على الأقل ، عندهم إحساسٌ ولو غامضٌ بشيءٍ كهذا . على الرغم من حنقهم الشديد على أخيهم الأصغر ، بل لعلّ هذا الإحساس نفسه السبب الأكبر في حنقهم عليه .

٤ — هذا الأخ حريصٌ على تضمين كلامه « قد » التي تفيد التحقيق ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ وكان بإمكانه أن يستغنى عنها ، لولا أنّ انفعاله العنيف لم يكن يسمح له بذلك خاصةً وقد قدمها على « موثقا » ولم يؤخرها ، وذلك ممكن .

كما لا يخفى أنّ لقوله : « من الله » دوره البعيد المدى أيضاً .

فالقصد من ذلك إشعار الإخوة بوجوب تقديرهم للموثق من الله الذي آتوه والدهم ليأتنه بأخيهم الأصغر .

٥ ــ يبدو من هذه الجزئية ﴿ ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ وهي التي تتعلق في جوهرها بالأخ الأصغر . أن هذا الأخ الأكبر عفّ اللسان ، طيّب القلب ، صافي السّريرة .

إنه يتناول هذه القضية من جانبها الإنساني ، جانب ردّ الفعل المتوقّع في نفس والدهم نبي الله يعقوب . لهذا هو لا يقول عن أخيه هُجْراً من القول .

وهذا قد يكون دليلا على أنّ هذا القول السابق من جانب الإخوة ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ لم يصدر منهم جميعاً ، أو على أقل تقدير ، لم يكن هذا الأخ الأكبر شريكاً فيه ، ويقتصر دوره على السكوت عمّا قيل (١) .

٦ ــ يبدو من انتقال هذا الأخ العاصف ، من الحديث عن الحاضر إلى الماضي ، ومن القضية التي لا يد لواحدٍ منهم فيها ، إلى القضية التي لكلّ واحدٍ منهم يدٌ فيها ، والتي طال بها العهد جدّاً ، أننا بصدد إنسان مرهف الإحساس ، حيّ الضمير ذكّر كلّ واحد من إخوته بالخطأ الشنيع الذي ارتكبه بحقّ أخيه يوسف .

ويلاحظ أنه كي يكون كلامُهُ كامل الوضوح تامّ الدّلالة ، يأتي باسم يوسف صراحة « ومن قبل ما فرّطتم في يوسف » ولا يقول مثلا : ومن قبل ما فرّطتم في أخيكم .

ولا نجد تعليلا لذلك سوى رغبة هذا الأخ ، في حمل إخوته على تمثُّل الموقف بأبعاده المختلفة تمثّله هو .

والنقطة الباقية التي يمكن لنا أن نتكلم فيها هي « ما » من قوله : « ما فرّطتم » .

---

(١) ومن ثم فان هذا القول من يوسف عليه السلام ﴿ انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون ﴾ كان فى السر لا فى العلن ٠ والا لشمل البرىء والمسىء معا ٠ وهـذا شيىء لا يمكن ان ينسب بحال الى نبى الله تعالى يوسف عليه السلام ٠

ويُمكن أن تُعتبر « ما » مصدريّة ، والواو للعطف ، ويكون المعنى : ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، وتفريطَكُم من قبل في يوسف .

ونكون في هذه الحال قد نظرنا إلى « ومن قبل » من الوجهة النفسية . بمعنى أن الأخ مرهف الإحساس ، قد أدرك نقله المفاجيء للإخوة ، من الحاضر إلى الماضي البعيد ، فمهد لذلك بقوله : « من قبل » . .

ويمكن أن نعتبر المصدر المؤول من « ما فرطتم » مبتدأ مؤخراً خبره « ومن قبل » .

وفي هذه الحال نضمّن الواو معنى الاستئناف . وعند التلاوة لا نربط بين الجزئيتين ، ولكن نتلو هذه الجزئية أولا « قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » ثم تستأنف تلاوة الجزئية الثانية .

ويمكن أيضاً أن نعتبر « ما » زائدة ، وهذا أضعف الآراء في اعتقادي فيكون المعنى على ذلك ، ومن قبل فرطتم في يوسف .

وفي هذه الحال ، لعل عدم الرّبط بين الجزئيتين ، أثناء التلاوة ، أولى ، والله أعلم .

٧ — على الرغم من أن هذا الأخ الأكبر لا يد له ، أسوة بإخوته في قضية بنيامين ، وأن موقفه في قضية يوسف سلبيّ ، بعكس كافة الإخوة ، إلا أنه يحمّل نفسه ما لا يحمّل إخوته ، ويعاقبها على سكوتها عن الباطل ورضاها عنه من قبل ، بالبقاء في مصر وعدم المغادرة إلا بشرط من اثنين .

وليس لذلك من تعليل سوى رهافة إحساس هذا الأخ ورجاحة عقله .

وألطف ما في هذا الحكم القاسي العنيف ، أن هذا الأخ يصدره من ذات نفسه على ذات نفسه في القضية التي مضى عليها سنوات وسنوات ، مع علمه القطعي بأن صاحب الحق الشرعي في هذه القضية غائب ، ولا يعلم

شيئاً عن هذا الحكم ، بل لعله ليس في هذه الحياة الدنيا أساساً .

وإن كان هناك من دور للقضية الثانية ، فإنه يقتصر على كونها الشرارة الأولى التي فجرت نفس الأخ الأكبر ضميراً حياً نابضاً متألماً لما فرط منه بحق أخيه يوسف ، وما ترتب على ذلك من أذى لحق يعقوب عليه السلام .

وقد كان الحكم قاسياً عنيفاً في هذه الصورة القوية جداً من التعبير « فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » .

ونفهم من هذا التعبير الإرادة القوية والعزم الأكيد .

وأكبر دليل على ذلك أن ما قاله ليس كلاماً ألقي على عواهنه ، ولكن هناك التنفيذ الفوري .

وإن « برح التامة » تكون بمعنى ذهب وبمعنى ظهر . ومنه برح الخفاء ، أي ظهر وذهب . لا ينتصب الظرف المكاني المختص بها ، إنما يصل إليه بوساطة « في » فاحتيج إلى اعتقاد تضمين برح بمعنى فارق فانتصب « الأرض » على أنه مفعول به .

ولا يجوز أن تكون « برح » ناقصة ، لأنه لا ينعقد من اسمها والأرض المنصوب على الظرف مبتدأ وخبر ، لأنه لا يصل إلا بحرف في « لو قلت: زيد الأرض لم يجز » (١) .

٨ ـ حينما نتأمل الحكم الذي أصدره هذا الأخ بحق نفسه « فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » فإنا نتبين حرصه على تضمين كلامه مرتين للام الجر ، وضمير المتكلم المفرد « لي » وقد كان بإمكانه أن يستغني عنهما في الموضعين لو شاء .

ولكن هذا شيء لا يمكن أن يسمح به ضمير هب كإعصار عاصف ، على الرغم من يقينه بأنه كان له موقف من نوع معين ، لو قيس بموقف إخوته لاتضح أنه الرحمة عينها .

---

(١) البحر المحيط ٣٣٦/٥ .

كما نتبين اشتمال هذه الجزئية « وهو خير الحاكمين » على لفظ الخير ، الذي يدل على أننا بصدد نفس توّاقة للإقبال على الخير ، وقلب سليم من كل شائبة . ولم يأت على لسانه مثلا : وهو أحكم الحاكمين ، الذي يؤدي الغرض ولا شك ، ولكنه يدل أيضاً على أننا بصدد شخص يتعامل إلى حد كبير مع الفكر والعقل ، وليس مع القلب الذي يعتبر دوره في هذا الظرف أوْلى . وقد قام القلب بدوره خير قيام فعلا ، حينما استعمل الأخ لفظ الخير ، وليس أيّ لفظ آخر .

وحينما نقول إن لفظة الخير تدل على القلب السليم أكثر من دلالتها على غيره ، فليس معنى هذا أن العقل أو الفكر قد عطّلا عن العمل في هذا الظرف الدقيق ، وخير دليل على ذلك لفظ « الحاكمين » الذي جاء في الجزئية نفسها . .

وحينما نتأمل هذه الجزئية ككلّ ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ يتضح أننا بصدد توازن غاية في الدقة والعدل ، بين القلب والعقل ، بين العاطفة والفكر .

ففي الوقت الذي نجد لفظة « الخير » تتعلق بنفس الأخ الأكبر ، فإنا نجد لفظة « الحاكمين » تتعلق إلى درجة كبيرة بالذي لا يبدل القول به وما هو بظلام للعبيد ، بالله الكبير المتعال ، الذي كل ما يشاء له أن يكون هو الحكمة ذاتها .

وهكذا يتضح لنا العدل التام والتوازن الكامل ؛ فلفظة الخير ترتبط في جملتها بالقلب والعاطفة ، ولفظة الحاكمين ترتبط في جملتها بالعقل والفكر .

٩ — حينما نتأمل كلا من شرطي مبارحة الأخ الأكبر أرض مصر ، فإنه يتضح أن كلا منهما ، على الترتيب ردّ فعل لتمثل هذا الأخ ، المرهف

الإحساس ، لأبعاد كل من القضيتين ، قضية بنيامين ويوسف اللتين أشار إليهما قبل مباشرة ، في هذا الترتيب نفسه .

فإذا تأملنا الشرط الأول ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ اتضح لنا أن هذا الأخ عفّ اللسان نقي السريرة ، ينظر لقضية بنيامين من زاويتها الإنسانية ، من زاوية والده نبي الله يعقوب ، الذي سيؤوده حمل النبأ العظيم ؛ والذي قرر من أجله عدم مبارحة أرض مصر ، حتى يأذن له أبوه بالعودة ، بأن يثبت بصفة أكيدة له ، أنهم لا يد لهم فيما حدث للصغير .

أو أن يفرّج الله تعالى عنه من الاسترقاق بعفو العزيز عنه ، إن صح ذلك أنه من حق العزيز الحريص على تطبيق هذا الحد الإبراهيمي .

أو انتهاء مدة الاسترقاق التي ذهب البعض إلى أن مدتها عام واحد .

وحينما نتأمل الشرط الثاني ﴿أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين﴾ الذي قلنا:إنه رد فعل لقوله في الآية نفسها : ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ فإنه يتضح أننا بصدد نفس قد عصرها الألم عصراً ، فبلغت الغاية في الرقة والشفافية ، وأقبلت بكليتها على الذات العلية ، على الله تعالى القادر على كل شيء .

ومن هذه الزاوية نستطيع أن نقول : إن هذا الأخ الأكبر ، يعتبر من أكثر أبناء نبي الله يعقوب ، بعد نبي الله يوسف ، إقبالا على الله تعالى وإيماناً بذاته العلية .

١٠– حينما يتضح أن الإخوة في الرحلة الثالثة إلى مصر ، لم يكن عندهم سوى الدراهم غير الجيدة ، فقد جاء على لسانهم قوله تعالى : ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ .

فهذا يعني ضمناً ، أن الدراهم الجيدة كانت على وشك أن تنفد في الرحلة الثانية .

ومعنى هذا أن الأخ الأكبر ، حينما يقرّر في هذه الرحلة البقاء في مصر ، فإن هناك مجهوداً من نوع معين سيبذله سعياً وراء لقمة العيش .

فليس هناك فرار إلى راحة ، ولكن هناك كد وعناء ، وهذا مما يجعل تضحيته بالبقاء في مصر ، ذات طعم وقيمة .

١١– يبيح هذا الأخ لنفسه أن يستعمل فعلين للأمر في مخاطبته لإخوته ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا﴾ .

ونستطيع أن نفهم أن لكونه كبير إخوته دوراً في ذلك ، وأنه من باب الانتفاع من توقير إخوته وتبجيلهم له باعتباره كبيرهم .

وحينما نتأمل الفعل الأول يتضح أنه تعميق لمعنى القرار الذي اتخذه بحق نفسه « فلن أبرح الأرض » لأنه حينما يبقى ، فعلى الباقين أن يرجعوا كما رجعوا بعد التخلّص من يوسف ، كي يقف يعقوب على حقيقة الأمر .

وهم سيرجعون جميعاً ، لأن الأخ الأكبر انفرد بهذا الحكم على نفسه دون سابقة .

ولا نجد واحداً من الإخوة ، باعتبار باب البقاء في مصر قد فتحه هذا الأخ، يتّخذ قراراً مماثلا ليس من باب الإبداع ، فقد سبق الأخ الأكبر لذلك ، ولكن من باب الاتّباع .

وهذا دليل على أن هذا الأخ ينفرد برهافة إحساس ليست لواحد من إخوته الذين شاركوه هذه الرحلة .

وحينما نتأمّل الفعل الثاني ، نجده يفتح الباب للكثير من القول الذي ينبغي على الإخوة أن ينقلوه إلى والدهم ، وهذا دليل آخر على رهافة إحساس هذا الأخ .

١٢– يجيء على لسان هذا الأخ ﴿ارجعوا إلى أبيكم﴾ ولا يجيء على لسانه : ارجعوا إلى أبينا ، وهذا تعميق لعزل هذا الأخ نفسه عن إخوته .

وقد ابتدأ قوله : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم ﴾ وإذا كانت بداية العزل بهذا القول ، فقد عززها القرار بالبقاء في مصر ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾

وها هو ذا الآن في قوله :« ارجعوا إلى أبيكم » يعمق الحكم ويعزز العزل ويأمر الإخوة بالرجوع ، دونه بطبيعة الحال .

١٣ــ لنتأمل قول هذا الأخ : « يا أبانا » في تلقينه لإخوته ما يقولون « فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق . . . » إلى آخر القول .

لقد كان بإمكانه أن يستغني عنه ويجيء على لسانه : فقولوا إن ابنك سرق : ولكن هناك فرقاً بعيد المدى بين التعبيرين ، فلو لم يأت قوله : « يا أبانا » وجاء على لسانه : فقولوا:إن ابنك سرق » لكان في خطابهم لأبيهم شيء كبير جداً من الجفوة والغلظة والخشونة . خاصة في ذلك الوقت العصيب .

ولكن حينما يجيء على لسانه ما جاء فعلاً ، فذلك ولا شك ، دليل بعيد الدلالة على رقة شعور هذا الأخ ، ورهافة إحساسه ، وبره بوالده . وليس بخاف أن القول : « يا أبانا » يعتبر توطئة لها قيمتها بين يدي ذلك النبأ الجلل .

ومن يدري ؟ ربما لو أن هذا الأخ ، لم ينبّه إخوته إلى أدب في الحديث كهذا لتورطوا في نقل النبأ إلى والدهم على علاته ، ولحدثت له ، بناءً على ذلك مضاعفات أكثر .

١٤ــ يجيء على لسان هذا الأخ « ارجعوا إلى أبيكم فقولوا » ولا يجيء على لسانه مثلا : ارجعوا إلى أبيكم وقولوا . بالواو بدلا من الفاء ، كي يقال : إن المجيء والقول متساويان في الأهمية .

فدل مجيء الفاء من « فقولوا » أن المهم في الموضوع هو القول ، وأن المجيء ليس سوى وسيلة ضرورية وسبب حيوي ، لأن بدونه لا يمكن أن يتم القول بحال .

١٥– يجيء على لسان هذا الأخ ﴿إن ابنك سرق﴾ فهل كان بإمكان هذا الأخ أن يستغني عن جملة « سرق » ؟ ولماذا لم يجيء على لسانه مثلا : إن أصغر أبنائك سرق ، مع العلم بأن يعقوب عليه السلام ، لا يعود إليه في هذه الرحلة اثنان من أبنائه ، أكبرهما وأصغرهما ؟

والجواب على الشق الأول أن هذا الأخ المرهف الإحساس ، يسوؤه في أعماقه أن يُنقل نبأ السرقة إلى أبيه . ولكنه نبأ يجب أن يصل إلى نبي الله يعقوب لأنه حينما يعلم ثبوت السرقة على ابنه ، يعرف أن ابنه الحبيب على قيد الحياة وأنه لم يرجع إليه لأنه استُرِقّ ، كما تقضي بذلك الشريعة الإبراهيمية .

وإذا كان هذا النبأ عاصفاً بيعقوب ، إلا أنه سيتضح بعد حين ، أن الاسترقاق لعام واحدٍ أهون من الموت مثلا .

وتأمّل رهافة إحساس هذا الابن . إنه يؤخر جملة « سرق » الضرورية الورود حتى لا مجال للتأخير .

إنه لا يقول مثلا : ارجعوا إلى أبيكم فقولوا سرق ابنك . ولكن « إن ابنك سرق » . وكما هو واضح ، فإن « إن » والكاف من « ابنك » اسمها ، لا يدلان على أكثر من ثبوت تهمة السرقة في نظرهم على أخيهم . ذلك الثبوت الذي حاول الأخ تأكيده لوالده والإتيان عليه بالشهود كما سنرى .

ولا يمكن أن يقال بحال ، إن في قول الأخ المؤكد: « إن ابنك سرق » ذرةً من تشفٍ . فليس هذا من خلق الأخ الكريم الخلق ، خاصة في هذا الظرف العصيب .

والجواب على الشق الثاني من السؤال هو أن هذا الخبر غاية في السوء . وليس مما يسر الأخ الأكبر بحال ، أن يصرح ابتداءً بأن أخاه الأصغر هو الذي سرق .

ثم إنه على يقين تام ، من أن أحبّ أبناء يعقوب بعد يوسف إليه ، هذا الأخ الأصغر ، الذي لم يسمح لإخوته بأخذه معهم إلا بعد جهد جهيد . لذلك هو خليق به ، حينما يعود الإخوة إلى أبيهم دون الآخرين ، الأكبر والأصغر أن يفتقد الأخ الأصغر ، لأنه أحب الأبناء الموجودين ، ولأنه سبق أن غاب عنه في رحلة سابقة أحبُّ أبنائه إليه ، أعني يوسف .

فكان أول من سيفتقده يعقوب من ابنيه بنيامين .

وكأنه سيسأل في وَجَل ، حينما لا تقع عيناه عليه : أين هو ؟ وكأن الأخ الأكبر يعدّ الجواب على هذا السؤال البديهي الذي سيطرحه يعقوب عليه السلام .

حقاً إن يعقوب سيسأل عن الأخ الأكبر أيضاً ، وسيسوؤه ، عدم رجوعه ولكن السؤال عنه سيكون ثانياً ، واستياءه سيكون متمماً لاستيائه من عدم عودة أصغر الأبناء إليه . لهذا جاء على لسان هذا الأخ « إن ابنك سرق » وليس : إن أصغر أبنائك سرق أو ما شاكل ذلك .

١٦ـ حينما نتأمل الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ مباشرة ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ فالذي يلفت انتباهنا أولا هذه الصيغة القوية من التعبير التي تضمنت « ما » النافية ثم « إلا » .

ولم تأت هذه الجزئية مثلا ، في صورة كهذه أقل قوة : وقد شهدنا بما علمنا .

فدل ذلك على اهتمام هذا الأخ البعيد المدى برد الفعل العاصف في نفس يعقوب عليه السلام ، ومحاولته الجادّة ، في هذه الجزئية التي أتت بعد الإشارة إلى حادث السرقة ، أن يشير بوضوح ، إلى أن هذه المسألة ، ليست قذفاً منهم لأخيهم بارتكاب السرقة ، وليست حيلة انطلت عليهم .

وهل يمكن أن ينطلي شيء كهذا على أخيهم ؟

وهل من المعقول أن يسكت شخص بريء عن تهمة كهذه ؟

ولماذا سكت ولم ينبس ببنت شفة ، حينما استُخرج الصواع من رحله ؟

وإن جملة « شهد » التي يستعملها الأخ هنا ، والتي سيستعملها الإخوة بدورهم أمام والدهم ، لثقيلة الوزن قوية الدلالة ، إذ إنها تُشعر بأن النبأ الذي نقلوه إلى والدهم ، وإن كان سيئاً ، إلا أنهم يُدْلُون به ، وكأنه شهادة يشهدون بها أمام والدهم وهم مسؤولون أمام الله تعالى عما يقولون .

وإذا كانت جملة « شهد » لها هذه الدرجة البعيدة من ثقل الوزن وقوة الدلالة فإن جملة « علم » في الجزئية نفسها ، المعضدة لجملة « شهد » لها ثقل الوزن نفسه ، وقوة الدلالة نفسها . فليس هناك جملة في الدلالة على العلم اليقيني والاطمئنان القطعي إليه تقارب هذه الجملة التي استعملت في هذه الجزئية « وما شهدنا إلا بما علمنا » .

وليس بخاف أن الإخوة صادقون كل الصدق فيما سيقولون لوالدهم .

وهذا من الأدلة العديدة على أن الإخوة جميعاً ، على يقين تام من أن تهمة السرقة لاصقة بأخيهم ولا ريب .

وأنهم لم يفطنوا البتة إلى شيء من الاتفاق بين يوسف وشقيقه ، وأن الحيلة محكمة التنفيذ .

١٧– حينما نتأمل الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ بعد ذلك مباشرة ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ نتبين أنها متعلقة في جوهرها بالموثق الذي سبق أن آتاه الإخوة والدهم ، ليأتنه بأخيهم ، ولا يكونون حائلا دون عودته .

وواضح أن هذه الجزئية تقرر حقيقة لا يجهلها أحد ، وهي أن مفاتح الغيب عند الله وحْدَه .

وكأنهم يقولون : إنه لم يكن يخطر ببالنا مطلقاً أن أخانا ، الحريصين

على عودته إليك سليماً معافى ، يتورط في عمل كهذا ، يحول بينه وبين أن يعود إليك .

ولو كان عندنا إرهاصات بعمل كهذا يمكن أن يقوم به هذا الأخ ، لما تورطنا في طلبنا وإلحاحنا أخذه معنا .

وإن لسان حال الإخوة ليستمر قائلا ؛ وهكذا يتضح لك يا أبانا تمام الوضوح ، أن ما حدث لأخينا لا يد لنا فيه ، ولا طاقة لنا على دفعه ، وأنه يدخل تحت استثنائك ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ حينما طلبت منا أن نؤتيك عهد الله وميثاقه .

وهكذا يتضح يا أبانا أن هذا الأمر ، قضاءٌ من الله تعالى علينا جميعاً وقدرٌ لا يرد .

١٨- حينما نتأمل هذه الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ بعد ذلك مباشرة ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ نستطيع أن نفهم أن القافلة التي كان فيها الإخوة ، بعد أن فصلت العير من المدينة مرّت بقرية في الطريق ، تعتبر من المحطات التي من الجائز أن تحط فيها الرحال . ومن هنا جاز القول « كنا فيها » .

وهناك أذّن المؤذن على العير ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ وأن هذا الأذان والحوار كان بمرأى من أهل القرية ومسمع . وقد عرفوا أخيراً عند من وجد الصواع .

وبما أن من سمات سكان القرية الاستقرار ، لذلك جاز لهؤلاء الإخوة أن يتخذوا هؤلاء السكان شهوداً في هذه القضية ، يمكن أن يسألوا في أي وقت من الأوقات .

ونستطيع أن نفهم أنّ عدد هؤلاء الذين يمكن أن يُستشهد بهم غير قليل .

فلو فرض أن البعض لم يكن في القرية وقت طلب الشهادة ، فإن البعض الآخر سيكون حاضراً .

ومن هنا جاز لنا أن ننتهي إلى أن المؤذن والفِتْيان كانوا حريصين كل الحرص على العثور على الصّواع .

ومن هنا أخذ صوت المؤذن المدوي يقرع كلّ أذن تقريباً في القرية والقافلة (أيتها العير إنكم لسارقون) .

١٩– حينما نتأمل هذه الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ بعد ذلك مباشرة (والعير التي أقبلنا فيها) فإنا نستطيع أن نفهم أن هذه القافلة كانت متجهة من مصر إلى البلد الذي فيه يعقوب عليه السلام على أقل تقدير ، وأن الإخوة يشكلون جزءاً من القافلة وليس كلّ القافلة ، وأن بعض المسافرين من باب المصادفة أو الضرورة ، سينزلون إلى البلد الذي فيه يعقوب ، ولعلهم من سكانه .

ومن هنا جاز أن نُعرض شهادة هؤلاء في أي وقت يريدها فيه يعقوب عليه السلام .

٢٠– حينما نتأمل هذا القول على لسان الأخ (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) يتضح أن هذا الأخ الأكبر ، الذي مازال في الديار المصرية ، وكان كأي واحد من إخوته ، قد أعدّ العدّة للعودة إلى بلاده . وباعتباره كبير إخوته ، والمسؤول الأول بينهم ، لذلك نراه على علم تام ببعض الأشياء التي قد لا يعلمها من تحمّل مسؤولية السفر عنه سواه . فهذا الأخ نعتقد أنه المدبر لشؤون إخوته في هذه الرحلة ، ومن هنا جاز له أن يكون على علم بأن بعض المسافرين ستكون نهاية رحلتهم البلد الذي فيه يعقوب .

ومن يدري ؟ ربما كان هناك اتفاق على أن يكونوا قريبين في القافلة من بعضهم . وقد أفسد حادث السرقة كل شيء .

٢١ـ حينما نتأمل هذه الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ بعد ذلك مباشرة « وإنا لصادقون » فإن الذي يلفت انتباهنا اشتمالها على إن واللام ، وكلٌ منهما يفيد التوكيد .

ونستطيع أن نقول أيضاً بهذا الصدد : حتى صفة الصدق ، لا يبخل هذا الأخ المرهف الإحساس أن يلقّنها إخوته .

وعلى الرغم من أن كل ما يقوله هذا الأخ الآن والإخوة لأبيهم مستقبلا صدق . إلا أننا نجد ميلا أكيداً إلى خلع صفة الصدق على الكلام الذي يقال كما نجد اهتماماً بعيد المدى بالشهادة .

فنحن بصدد جملة شهد من قوله: ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ كما أن الآية الأخيرة تدور في مجموعها حول الشهادة ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾ فلم كلُّ هذا الاهتمام بالشهادة ؟ مع أنهم صادقون الصدق كله ؟

والجواب على ذلك أنه رد فعل للشعور العميق بالنقص الجوهري في القضية الأولى ، قضية يوسف عليه السلام . فلم يكن عندهم من شاهد آنذاك سوى القميص الذي عليه دم كذب .

٢٢ـ في الإمكان أن نقف بعض الوقت عند جملة « ارجعوا » من قوله تعالى على لسان هذا الأخ،﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا﴾ إلى آخر ما جاء على لسانه .

وقبل ذلك ، نود الوقوف عند جملة واحدة استعملها كلٌ من يعقوب ويوسف عليهما السلام في خطاب هؤلاء الإخوة أنفسهم .

قال تعالى على لسان يعقوب : ﴿يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ وقال تعالى على لسان يوسف : ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ .

فدل استعمال جملة ذهب في المناسبتين على أنّ المراد ذهاب الإخوة مع انتظار عودتهم . فهذا هو الذي يأمله يعقوب عليه السلام ، وهذا هو الذي ينتظره يوسف عليه السلام ، بل هذا الذي أمر به صراحة في قوله: ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

فإذا عدنا إلى جملة ارجعوا ، على لسان الأخ الأكبر ، فلا نشمّ منها أي انتظار منه وأمل في عودة إخوته إليه .

وهذا دليل على تصميم هذا الأخ على البقاء في مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم له خير الحاكمين .

٢٣- حينما نتأمل قول يعقوب للإخوة : « يا بني اذهبوا » وقول هذا الأخ الأكبر للإخوة أنفسهم: « ارجعوا إلى أبيكم » دون توطئة . فإنا نتبين فرقاً بين لهجة الأب الحنون المتألم ، ولهجة الأخ المنفعل الثائر

هذه هي ملاحظاتنا على قول الأخ الأكبر وفعله ، والله أعلم .

ويبقى بعد ذلك سؤال لطيف بشأن هذا الأخ الأكبر الذي قرر البقاء في مصر هو : هل قُدر لهذا الأخ أن يعود مرة أخرى إلى الشام قبل تحول يعقوب عليه السلام وآله إلى مصر ؟ أم لم يقدر له ذلك ؟

والجواب يمكن أن يكون عن طريق تأمل الشرطين اللذين اشترط تحقق واحد منهما كي يعود إلى والده .

قال تعالى على لسانه : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ .

والآن نتساءل ، هل قدر ليعقوب عليه السلام أن يأذن لهذا الأخ الأكبر في مغادرة مصر والعودة إليه ، وكيف يمكن أن يتم ذلك ؟

باقتناع يعقوب بأن ما حدث لابنه الأصغر قدر من الله تعالى لا يد لمخلوق فيه .

ولكن يعقوب مشغول الفكر بابنيه اللذين كان نصيبهما من الشقاء كبيراً ، يوسف وبنيامين .

لهذا طلب من أبنائه أن يتحسّسوا من يوسف وأخيه . قال تعالى: ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

وحينما يعود الابنان الحبيبان يعود الأخ الأكبر ضمناً . وقد صرح يعقوب برجائه الكبير في الله تعالى أن يحقق له ذلك .

قال تعالى على لسانه: ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنّه هو العليم الحكيم ﴾ .

وبما أن يعقوب إنما علم لأول مرةٍ علماً أكيداً عن يوسف بأنه حيٌّ يرزق ، حينما ألقي عليه القميص ، الذي بعث به يوسف إليه ، وتحول بعد ذلك مباشرة إلى مصر . فمعنى هذا أنه لا مجال أساساً لأن يأذن يعقوب لابنه الأكبر أن يبرح أرض مصر ويعود إليه .

والآن إلى تأمل الشرط الثاني ﴿ أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ وقد عرفنا أن المراد هو الحكم له بأنه صاحب الرأي بجعل يوسف في غيابة الجب إنقاذاً له من قتل مباشر أو غير مباشر .

وكيف يتحقق هذا الحكم من الله خير الحاكمين ، لهذا الأخ الأكبر ببراءته؟ بالعثور على يوسف حيّاً يرزق، وعلم يعقوب الأكيد بذلك . وقد عرفنا أن ذلك تحقق عن طريق القميص .

وقد آن الأوان كي نتلو بعض الآيات التي فيها الجواب على سؤالنا ،

هل قُدر لهذا الأخ أن يعود مرة أخرى إلى الشام قبل تحول يعقوب وآله إلى مصر أم لم يقدر له ذلك ؟

وقبل التلاوة نود أن نشير إلى ضرورة التنبيه إلى لفظ البشير بصيغة المفرد وجملة ألقاه التي تعود إلى البشير المفرد في هذه الآيات . قال تعالى : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ، ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، قالوا تا لله إنك لفي ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾.

ولا يخفى أن خطاب يوسف عليه السلام موجه إلى جماعة الإخوة ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ . بينما جاء البشير في صيغة المفرد . فمن هذا البشير ؟

في الحقيقة ، لا نجد أحداً من أبناء يعقوب عليه السلام ، أولى بكونه البشير الذي يُلقي بقميص يوسف على وجه يعقوب فيرتد بصيراً من هذا الأخ الأكبر .

فمن الجائز أن يكون الأخ الأصغر قد عاد مع الإخوة الحاملين لقميص يوسف ، بل ان هذا ما يوجبه برّهُ بأبيه خاصة وأنه سلوة يعقوب عن أحب أبنائه إليه يوسف الذي قضت حكمته تعالى أن ينتقل إليه أبوه ويتحول معه في مصر حيث الخصب والخير الوفير .

ولكننا مع ذلك نجد الأخ الأكبر أولى أبناء يعقوب ، وفيهم أصغر أبنائه ، بكونه أول داخل على يعقوب ، حاملا البشارة بكون يوسف عليه السلام على قيد الحياة ملقياً القميص على وجهه فارتد الإبصار إلى كلتا عيني يعقوب بعد أن تحول إلى أعمى من الحزن على ابنيه الحبيبين .

وهكذا يتضح أن الأخ الأكبر قُدر له أن يرجع إلى والده في الشام ، ثم تحول برفقة والده إلى مصر .

وبناءً على ذلك يكون أكبر الإخوة قام بثلاث رحلات وأصغرهم رحلتين فقط بينما قام بقية الإخوة بأربع رحلات .

أما يوسف عليه السلام ، ويعقوب عليه السلام وآله ، فقد كان من نصيبهم رحلة واحدة فقط ، تمّ فيها بالنسبة ليعقوب وآله الالتقاء بيوسف الذي آتاه الله تعالى من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث .

وبهذه المناسبة نستطيع أن نقول : إن شخصية الأخ الأكبر تطورت بعد ثبوت ظاهر السرقة على الأخ الأصغر تطوراً سريعاً تجاه الخير والصلاح .

وكانت أخيراً النهاية السعيدة حينما تبينت له حقيقة العزيز وأنه هو أخوه يوسف . وتمت على يديه البشارة كما سبق أن أشرنا .

يبقى في الحقيقة سؤال بسيط يُطِلُّ برأسه علينا وهو : كيف عرف هذا الأخ الأكبر ، أن عزيز مصر هو أخوه يوسف ؟ ومتى تمّت المعرفة وهو الشخص الذي انقطعت عنه أخبار إخوته ، ولم يكن يعرف أنهم سيعودون إلى مصر مرة أخرى ؟

والجواب على ذلك أن هذا الأخ ولا شك ، كان عند وعده الذي أخذه على نفسه ، ومصمماً على الاستمرار في البقاء بمصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم له خير الحاكمين ، وقد انقطعت كلُّ صلة له بإخوته تقريباً .

ونستطيع أن نفهم أنه كان يائساً من احتمال إطلاق سراح العزيز لأخيه قبل انقضاء المدة المعلومة ، التي يبقى فيها السارق مسترقّاً ، فإن جواب العزيز الحاسم على طلب الإخوة سابقاً « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذن لظالمون » جعل اليأس من هذا الأخ متمكناً ، لهذا لم يفكر مطلقاً في تجديد محاولة الطلب من العزيز بأخذه ، بدلا من أخيه .

فضلا عن طلبهم من العزيز شيئاً آخر أبعد من هذا .

بل إننا نميل إلى أن هذا الأخ الأكبر ، قمة في الصلاح والتقوى لن يخطر بباله البتة شيء من هذا ، ما دام أن المسألة تتعلق بحد من حدود الله تعالى .

لكل ذلك نميل إلى أن الإخوة بمجرد وصولهم إلى مصر في المرة الثالثة ، كان همهم البحث عن أخيهم الأكبر والعثور عليه .

ونستطيع أن نفهم أنه قد تم لهم ذلك بكل يُسر . فلا يمكن بحال لهذا الأخ الأكبر الذي ضحى بكل شيء في سبيل الأخ الأصغر ووالده أن يكون بعيداً عن المكان الذي اعتقد أن أخاه المسترق ينزله .

ونستطيع أن نفهم أنه عرف كلّ شيء عن والده وساءه تماماً الحال السيئة التي انتهى إليها ، والعمى الذي حل بكلتا عينيه ، ولكن ليس باليد حيلة ، والأمر كله لله .

وفي إمكاننا بهذه المناسبة أن نتساءل : هل كان هذا الأخ الأكبر واحداً من الإخوة الذين دخلوا على العزيز في الرحلة الثالثة ؟

والجواب على ذلك أننا حينما نتأمل الكلام الذي جرى على لسان الإخوة لا نجده يهيئ للفهم بأن للأخ الأكبر دوراً فيه . قال تعالى : « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » .

إن هؤلاء الإخوة يمسون مسألة أخيهم الأصغر مساً رفيقاً ، لإيمانهم العميق بأن العدل فقط هو الذي جرى بحقه . مع ملاحظة أن مساس الضر لآل يعقوب ليس مصدره فقط عدم رجوع الأخ الأصغر إلى أبيه .

ونميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأخ ، الذي ما بقي في مصر إلا من أجل الأخ الأصغر المسترق ووالده ، لم يكن يشبعه إشارة خاطفة كهذه لو أنه أباح لنفسه مفاتحة العزيز في قضية أخيه .

وبما أن هذا الأخ قمة في التدين ورهافة الإحساس ، لذا نميل إلى أنه ليس له دور مطلقاً في هذه الجزئية التي نعتقد أنها جرت على لسان إخوته : « يا أيُّها العزيز مسنا وأهلنا الضر » .

والذي يساعد على فهم كهذا ، وأن الأخ الأكبر لم ينبس ببنت شفة هذه المرة ، ما جاء في الآية نفسها بعد ذلك مباشرة « وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » .

إن جملة « جئنا » تدلُّ على المجيء إلى المكان الذي فيه العزيز . وقد كان ذلك حال الإخوة . أما الأكبر فقد كان في مصر كما هو معروف . وهم جاءوا بدراهم غير جيدة ويطمعون من العزيز أن يتفضل عليهم بقبولها وإيفاء الكيل لهم .

إذن المسألة التي استطاع الإخوة أن يتحدثوا فيها هي الحاجة إلى الطعام . وهل لهذا الأخ حاجة إلى طعام وهو الوحيد في مصر ، وسيبقى فيها حسب اعتقاده ؟ لم يكن له حاجة بطبيعة الحال .

لكل ما سبق نميل إلى أن هذا الكلام كله ، خطاباً للعزيز ، كان من قبل الإخوة . وليس للأخ الأكبر أي دور فيه .

ولو فُرض أنه ، وهو الرجل المرهف الإحساس ، لم يجرؤ هذه المرة . على الدخول مع إخوته على العزيز ، فإنه لن يكون بحال من الأحوال بعيداً عن إخوته الذين دخلوا على العزيز ، بل يجب أن يكون قريباً منهم كلّ القرب ، منتظراً على أحر من الجمر نتيجة حوار الإخوة مع العزيز .

وفي هذه الحال يكون عدد الإخوة الذين دخلوا على يوسف هذه المرة سعة ويكون سؤال العزيز الإنكاري لهم « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » مقصوراً على هؤلاء التسعة الذين اقترحوا قتل يوسف أو طرحه أرضاً وهم الذين في حقيقة الأمر فرطوا في يوسف . وما أسرع علم الأخ الأكبر بحقيقة العزيز ! .

ومن الجائز أن يكون كلُّ الإخوة قد دخلوا على العزيز ، ولكن الأخ الأكبر لم يتكلم ، وفي هذه الحال يكون كلُّ الذين أجمعوا على جعل يوسف في غيابة الجب هم الذين نبّأهم يوسف بأمرهم ذلك في لحظة واحدة جميعاً

وهنا نقول : ما أشد اندهاش الأخ الأكبر وفرحه ! وما أحرصه على كونه البشير الذي يذهب بقميص يوسف ويلقيه على وجه والده نبي الله يعقوب كي يرتد بصيرا

وتبقى بعد ذلك بشأن هذا الأخ الأكبر ملاحظة طريفة ، هي أن قراره بالبقاء في مصر ، كان على علم تام من العزيز ، الحريص على تسجيل كل حركة للإخوة وسَكَنة .

ونستطيع أن نفهم أن يوسف البارّ بأبيه وإخوته ، كان دائم العناية والرعاية لأخيه الأكبر . وسواء عرف هذا الأخ مصدر كل ذلك أم لم يعرف فإن لعزيز مصر في نفس هذا الأخ ، لإحسانه الدائم وعدله التام ، منزلة ليس وراءها منزلة .

ولعل الذي جعل هذا الأخ وبقية الإخوة لا يجرؤون على مفاتحة العزيز مرة ثانية في قضية أخيهم ، بشكل صريح ، تمسك العزيز التامُّ ؛ وإلى أبعد الحدود بالمُثُل والمبادىء الدينية منها على وجه الخصوص .

**يعقوب عليه السلام وتسعة من ابنائه :**

وعاد الإخوة إلى أبيهم تنفيذاً لأمر كبيرهم الذي بقي في مصر ، ولكنهم كانوا تسعة بعد أن ذهبوا أحد عشر .

فكيف واجه هؤلاء التسعة أباهم ؟ وكيف نقلوا إليه كلام أخيهم ؟ وكيف عرف يعقوب بكل الذي جرى في مصر ، بما في ذلك قرار الأخ الأكبر ؟

إن القرآن الكريم ، ينقلنا سريعاً إلى رد يعقوب على كلام الإخوة الذي هو في حقيقته وجوهره كلام الأخ الأكبر .

وسنتأمل هذا الرد محاولين أن نفهم من منطوقه قول الإخوة ليعقوب وكيفية نقلهم ما حدث له .

قال تعالى عن يعقوب : ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم﴾ .

إن أول نقطة نود الوقوف عندها هي قول يعقوب : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » وواضح أن رجاء يعقوب في ربّه كبير أن يأتيه بأبنائه الغائبين جميعاً .

وكم عدد الأبناء الغائبين ؟ إنهم ثلاثة : يوسف وبنيامين والأخ الأكبر تمام الاثنى عشر أخاً .

إذن هذه الإشارة الأولى بضمير الجماعة إلى الأبناء « بهم » في أول جواب من يعقوب على أبنائه دليل على أنه عليه السلام عرف ما جرى للأخ الأكبر بمصر جنباً إلى جنب مع ما جرى للأخ الأصغر ، وإلا لكان كلامه ، ما دام لا يمكن أن ينسى ابنه الحبيب يوسف « عسى الله أن يأتيني بهما » .

فدلّ مجيء ضمير الجماعة على علمه بما جرى للأخ الأكبر أيضاً ، ودل ذلك بدوره على أن الإخوة قد قالوا شيئاً ما ، إضافة إلى القول الذي لقنهم إياه أخوهم . لأن الإخوة لو قالوا لأبيهم ابتداءً ما طلب منهم أخوهم أن يقولوا ، لفهم يعقوب أن المراد بذلك الأخ الأصغر ، ولما فهم شيئاً عن مصير الأكبر .

لهذا نميل إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الإخوة التسعة ، قد دخلوا على أبيهم جملة واحدة .

وما أسهل إدراك الأب الحنون يعقوب عليه السلام ، من النظرة الأولى للفرق البعيد ، بين العدد الذي ذهب فيه الإخوة والعدد الذي رجعوا به !

وما أسرع تبينه عدم وجود سلوته ، أصغر أبنائه بنيامين ، وأكبرهم الذي هو من أكثرهم براً به ! .

وكأني بيعقوب قد سأل عن الأصغر ، وتلاه مباشرة السؤال عن الأكبر وإن حال الإخوة ليغني عن سؤالهم وينبيء بشر مستطير .

ونستطيع أن نفهم أن الإخوة الذين هزتهم المصائب هزاً ، وعصرتهم الآلام عصراً ، قد أصبحوا لَبِقِينَ في الحديث إلى والدهم المكلوم ، لطيفي المعالجة للمسألة الشائكة التي هم بصددها .

وكأني بهم قد بدأوا جوابهم في طريقة حسنة عن القرار الذي اتخذه كبيرهم بالبقاء في مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم له أحكم الحاكمين ؛ فإن ابنه قد سرق إلى آخر الرسالة الطويلة التي حمّلهم إياها كبيرهم .

والذي يجعلنا نؤكد أن الإخوة لم يبدأوا الحديث بظاهر السرقة ، ولكن بقرار الأخ الأكبر المترتب عليها ، هو ضمير جماعة الغائبين على لسان يعقوب كما سبق أن أشرنا .

وإن لفظ « جميعاً » مسعف لضمير جماعة الغائبين هذا في مدلوله ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ . ويكون الإخوة بذلك لم يقتصروا على ما حمّلهم الأخ الأكبر من حديث .

وقد يقال:إن الإخوة كانوا مضطرين للحديث عن الأخ الأكبر لأن أباهم سأل عنه . وهذا صحيح . ولكن يبقى لهم فضل عرض النبأين الجسيمين في صورة حسنة ، مبتدئين بالنبأ الأقل جسامة ، مثنّين بالضرورة بالنبأ العظيم.

ونستطيع أن نوجز القول عن الإخوة في نقطتين :

أولاهما : هي أن الإخوة راعَوْا مقتضى الحال والسؤال الذي طرحه والدهم ، فكانت منهم لباقة في الرد ، استطعنا أن نستنتجها من تعليق يعقوب على ردّهم .

وثانيتهما : وثيقة الصلة بالأولى ، فقد أشعرنا تعليق يعقوب على ردّ الإخوة بأنهم لم يقتصروا على القول الذي لقنهم إياه كبيرهم .

ومن الجائز أن نفهم أن الإخوة قاموا بنقل هذا القول بروحه وليس بنصّه . فهذا هو الذي ينتظر حينما يكون هناك كلام يضاف إلى كلام معدّ من قبل ، لأن التنسيق بينهما ضروري وحتمي .

وبناء على هذه التغييرات التي أحدثها الإخوة في القول ، والتي نعتقد أنها جرت تحت فعل التأثر الفطري الإنساني في أنفس هؤلاء الأبناء البررة ، بسبب المعاناة التي كابدها ويكابدها والدهم ، فإنا نستطيع أن نقول : إن هؤلاء الإخوة ، قد أخذت تبدو عليهم طلائع التجاوب الإنساني الرحيم البعيد الحدود .

ذلك التجاوب الذي وصل بهم إلى درجة الاعتراف الصامت ، قبل أن يُعرف أيُّ شيء عن يوسف بأن اتّهام يعقوب لهم في كل مناسبة عن عدم عودة يوسف وبنيامين ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ صحيح .

بل تجاوز ذلك إلى البحث الجماعي عن يوسف . الذي لا يعرفون تماماً عنه ، هل هو حيٌّ يرزق أم أنه غادر هذه الحياة الدنيا ؟

ولم يفعل الإخوة كل ذلك إلا تحت ضغط تجاوبهم الإنسانيّ النبيل مع والدهم ، في القضية التي لهم فيها يد ، والقضية التي لا يد لهم فيها .

وهذا دليل على أن هناك تطوراً جماعياً في نفسيات الإخوة جميعاً تجاه الخير والصلاح . وستتبين ذلك بالتفصيل في حينه إن شاء الله .

وكان رد يعقوب على أبنائه التسعة موجزاً مركزاً .

قال تعالى : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

هذه الآية على لسان يعقوب عليه السلام ، هي كلُّ ما كان له من رد فعل مباشر على ذلك النبأ العظيم .

وبعبارة أخرى : لم يكن له عليه السلام ، أي عمل حركي ليس في هذه المناسبة فقط ، وإنما في المناسبة الأولى أيضاً ، بعد زعم الإخوة فتك الذئب بيوسف ، فلماذا ؟

والجواب على ذلك أن خصم يعقوب في المرة الأولى عشرة من أبنائه ولم يكن معه سوى أصغر أبنائه ، ولو فرض أنه أراد أن يقوم هونفسه بعمل ما، باعتبار أنه كان فيه فضل من قوة ، فما العمل الذي كان بإمكانه أن يقوم به ؟ وهو الذي يعتقد كذب فِلذات كبده .

لهذا فر في هذه المناسبة إلى الله تعالى ، فصبر صبراً جميلا لا شكوى فيه ولا تأفف ، يقيناً منه بأن هذا قَدَرٌ من الرحمن ، سيثيبه عليه إن عاجلا أو آجلا .

أما في المناسبة الثانية فكان يعقوب شيخاً فانياً ، لا يستطيع بطبعه القيام بأي عمل .

يضاف إلى ذلك أن ابنه الأصغر الذي كان بإمكانه هذه الأثناء أن يعينه أو ينوب منابه في القيام بما يريد ، مسترقٌ في مصر .

ومعنى هذا أنه حتى العمل البسيط ، سؤال الشهود الذين كانوا آنذاك في البلدة التي فيها يعقوب ، لا يستطيع هذا الأب المحروق الفؤاد ، أن يسألهم عن جلية الأمر .

ثم إنه قد أيقن لغياب أحبّ أبنائه إليه بالذات ، بأن هناك يداً لطيفة خفية تحرك كل هذه الأمور ، فأقبل بكلّه على أرحم الراحمين .

وحينما نتأمل الآية التي جاءت على لسان يعقوب فإنا نستطيع أن نقسمها إلى أربع جزئيات :

« بل سولت لكم أنفسكم أمراً » .

و « فصبر جميل » .

و « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » .

و « إنه هو العليم الحكيم » .

فإذا تأملنا الجزئية الأولى ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ لفت انتباهنا لأول وهلة أن الجزئية نفسها سبق أن استعملها يعقوب رداً على أبنائه الذين زعموا أن الذئب فتك بيوسف .

إن السبب الجوهري الذي يكمن وراء الإجابة نفسها ، مع أن الإخوة صادقون كل الصدق في المناسبة الثانية ، هو أن يعقوب ، بالإضافة إلى علمه القطعي بعدم وُد الإخوة للشقيقين ، فقد كان غير مستعد البتة لقبول ما جاء به الإخوة في المناسبتين .

ففيما يتصل بيوسف كانت الرؤيا التي رآها لما تعبَّر بعد .

وفيما يتصل ببنيامين ، فقد كان من الصعب عليه جداً بل من المستحيل أن يقتنع بأن أصغر أبنائه وهو الذي لا يقل تديناً عن أكثر إخوته تقوى وإقبالا على الله تعالى يمكن أن يتورّط في عمل مخز كتهمة السرقة التي يشهد الإخوة أمامه بأنها ثابتة في حقه .

وفوق ذلك هم يدّعون بأن هناك العديد من الشهود ، القريبين والبعيدين على حد سواء .

إن يعقوب مهيأ نفسياً لرفض كل ما يجيء به الإخوة من أنباء سيئة عن الشقيقين ، فكيف إذا كان الذي يخص الأخ الأصغر تهمة السرقة التي لا يمكن بحال أن تلصق برجل صالح ؟

ومن هذا الرجل ؟ إنه ابن نبي الله تعالى يعقوب الذي ما زال على قيد الحياة .

ولا يخفى أن هذه الجزئية التي يستعملها يعقوب للمرة الثانية ، يستحقها الإخوة جزاء وفاقاً لعملهم الأول السيّئ مع يوسف .

وواضح أن « بل » تفيد الإضراب وإلغاء كل الكلام الذي تفوه به الإخوة واعتباره من لغو القول .

ولا شك أن هذه صفعة عنيفة للإخوة .

وتأمل « أمراً » التي جاءت منكرة والتي اكتسبت قوتها وعميق مغزاها وواسع شمولها من هذا التنكير .

إن الذهن ليجتهد في سبيل تبيين ذلك الأمر الذي لن يكون في كل أحواله إلا شرًّا مستطيراً . والمتأمل لهذه الجزئية من الآية ككل ، يتضح له أنها هي فقط المقصورة على الإخوة . وعلى الرغم من أن يعقوب موقن من أن للإخوة يداً من نوع معين في قضيتي يوسف وبنيامين . فإن هذه الجزئية التي استعملت نفسها في المناسبتين ، تعتبر قمة في النقاء والطهر .

وهل ينتظر من نبي الله شيء غير هذا حينما يبلغ منه الغيظ غايته والحنق منتهاه .

والمنتظر أن الإخوة سيؤلمهم جدًّا الكلام الموجز البليغ الذي وجهه إليهم والدهم ، ولكن الذي يجعلهم يتجرعون مرارة هذا الكلام مع شيء من الاقتناع بأنهم يستحقون ذلك وأكثر منه ، أنهم يذكرون جيداً عملهم السيّئ بيوسف . خاصة وأن هذا الكلام ، هو نفسه الذي وجه إليهم في تلك المناسبة .

وإذا كان يعقوب في المناسبتين قادراً حينما يوجه الكلام الخاص بأبنائه على ضبط أعصابه والتحكم في لسانه إلى أبعد الحدود ، فإن هذه القدرة العجيبة تزداد وضوحاً ونزداد منها ثقة حينما ننتقل إلى الجزئية الثانية التي تتعلق في حقيقتها بذات نفس يعقوب عليه السلام « فصبر جميل » .

إنه لدرس جميل بليغ نافع يلقيه نبي الله يعقوب ، وكل نبي ورسول على أمة الإسلام ، فبانتهاء الجزئية الأولى ، القصيرة جدًّا ، الطاهرة جدًّا ، ينتهي كل ما يتعلق بالإخوة وينتقل إلى ذات نفسه ويضرب المثل الأعلى في الصبر الجميل عنه الصدمة الأولى .

إن هذه الصدمة وإن كانت في العدد ثانية إلا أنها توشك أن تكون في حقيقتها أولى . ألم يكد يحتل بنيامين المنزلة التي يحتلّها يوسف نفسها ؟ خاصة وقد بعد العهد جدّاً بيوسف فكاد يكون لبنيامين المنزلةالأولى في قلب يعقوب بالأصالة . ولا ننسى أن نكء القرح بالقرح أوجع .

ومع كل ذلك فإن يعقوب يصبر صبراً جميلا ليس فيه شكوى إلى مخلوق ، ولا عبوس في وجه ابن ، لعلمه القطعي بأن هذه الأمور ، وإن كان يبدو أن لبعض البشر يداً في تحريكها . فإن هذه اليد لا تتحرك إلا بإرادة الذي شاء لها ذلك . فالإيمانَ الإيمانَ بالقَدَرِ خيره وشره ، والصبرَ الصبرَ الجميل .

وإن كل نفس تصادف موقفاً عصيباً ، فإنها تتخذ موقفاً من هذه المواقف التالية :

١ ـــ موقف الجزع الشديد الجامح الذي يأخذ مع مرور الأيام في الضعف والفتور الطبيعيين وهذا الموقف غير محمود .

٢ ـــ موقف الجزع الشديد الذي لا يلبث حالا أن يعود صاحبه إلى جادة الصواب ، وهذا موقف محمود على سابقه .

٣ ـــ الصبر وهذا الموقف أحسن الثلاثة .

٤ ـــ الصبر الجميل ، الذي ليس فيه شكوى ولا تبرّم ولا تأفّف . وهذا الموقف أحسن المواقف جميعها .

وليس بخاف أن حظ يعقوب أحسن المواقف ، وهل يستغرب الشيء من معدنه ونحن بصدد نبي مصطفى من أنبياء الله تعالى ؟

وإن الشيء الآخر الذي يمكن أن يذكّر به ، وهو أن الصبر الجميل موقف يعقوب دائماً . وبعبارة أخرى : ليس هناك شيء من تطوّر أو تغيّر في موقف يعقوب من المصائب التي تحلّ به والتي تجيئه من زاوية أغلى ما يملك. إن موقفه من عدم مجيء يوسف الصبر الجميل ، وليس هناك شيء آخر سواه.

وإنّ موقفه من عدم مجيء الأخ الأصغر والأكبر في المرة الثانية هو الصبر الجميل أيضاً .

إن موقفه في المرتين الغاية التي ليس وراءها غاية .

إنه الصبر الجميل عند الصّدْمة الأولى في المناسبتين .

وما أجمل الصفة « جميل » في نعت الصبر الذي أهم صفاته العاجلة « المرارة » ! .

وكيف يكون المر جميلا ، وكيف يتم ذلك ؟ إنه يكون كذلك عند ذوي النفوس المطمئنة التي تتذوق الحلاوة ، النتيجة النهائية لحلاوة الصبر ، في الوقت الذي لا يطعم غيرها باستمرار سوى المرارة الدائمة .

هذه النفوس يجب أن تكون من نوع ممتاز .

لهذا هي تفطن دائماً لمواطن الجمال والحلاوة حيث لا يرى سواها إلا قبحاً ومرارة ، ومن هنا ندر وجود أمثال هذه النفوس ، وحينما توجد ، يجمل التنويه بجمالها والإشادة بجلالها .

ولا يمكن بحال أن يقال عن صبر يعقوب في المرة الثانية إنه تبع للأولى ، وامتداد لها وإن يعقوب عليه السلام قد اكتسب دُربة ومراناً من المرة الأولى ؛ فإن هناك سؤالا يلحّ علينا في هذه المناسبة ، ولا نجد عليه جواباً إلا إكبارنا لصبر يعقوب في المناسبتين معاً .

وهذا السؤال هو : وهل كان صبر يعقوب في المناسبة الأولى تبعاً لمناسبة سابقة وامتداداً لها ؟ .

والجواب بطبيعة الحال معروف .

ولا يمكن بحال أن ننقص من وزن الصدمة في المناسبة الثانية ؛ فإن الابن الأصغر احتلّ تقريباً منزلة يوسف ، يضاف إلى ذلك عدم عودة الأخ الأكبر في الرّحلة نفسها .

وهل كان الذي جرى على لسان يعقوب في المناسبتين ، فيما يتعلق بأبنائه المخاطبين وذات نفسه إلا واحداً ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التالية في الآية : ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ فإنه يتضح منها إيمان يعقوب المطلق في الله عز وجل ، الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . إن يعقوب يتبين له أن الله عز وجل يصطفيه بالابتلاء في أبنائه أعز ما يملك في هذا الوجود . وليس هناك دليل واحد على أنه ليس هناك أمل مطلقاً في عودتهم جميعاً وبدون استثناء .

إن الأخ الأكبر يمكن أن يعود . ألم يجعل إذن والده له بالعودة واحداً من شرطي العودة . وإن الأخ الأصغر يمكن أن يعود يوماً من الأيام . فإن لاسترقاق السارق – إن جاز أن ابنه سرق ، وكان ذلك مستحيلاً في اعتقاده – حدًّا زمنياً في الشريعة الإبراهيمية .

وحتى يوسف عليه السلام يمكن أن يعود يوماً من الأيام ، ويلتقي به يعقوب ويضمه إليه ويجد ريحه . لأن رؤيا يوسف لما تعبَّر بعد .

ولا شك أنه كان على علم تام بأن عدم عودة يوسف إليه أول الأمر يعتبر اصطفاء من الله تعالى له بالابتلاء . وكان على أمل اللقاء به ، ذلك الأمل الذي لم يمحه سواد الليل وبياض النهار ، بل كان له مجرى فريد يسير فيه .

ففي الوقت الذي تأخذ فيه أمثال هذه الآمال نحو الضعف فالتلاشي فالاختفاء إذا بأمل يعقوب لا يزداد مع الأيام في القوة إلا تمادياً . ومعنى هذا أنه كان ينتظر أن يعود عدد أبنائه اثني عشر أخاً ذكراً بدلاً من الأحد عشر أخاً باقياً بعد غياب يوسف .

ومعنى هذا أنه كان يطمع في الزيادة وإذا به يصعق للنقصان .

وهنا يرتفع إيمان يعقوب المطلق في الله عز وجل إلى مستوى الابتلاء بل إلى الدرجة التي نعتقد أنها ليس وراءها درجة . إن إيمانه لا يجعله مكتفياً

بالصبر الجميل عند الصدمة الأولى ، وإن الصبر الجميل في حد ذاته ليصور الإيمان في درجة من أعلى الدرجات التي لا يصل إليها إلا من اصطفاه الله تعالى بها وأعانه عليها .

بل إن إيمان يعقوب الموقن بأن هذه إرادة الله تعالى ليحدث رد فعل حسن في نفسه المطمئنة ، مصدره حسن الظن المطلق بالعليم الحكيم ، والثقة في عفوه ، واليقين في عاقبته ، والرجاء في ثوابه ، والأمل في كشف ضره ورفع بلائه ؛ لهذا جاء على لسانه ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ .

ونود أن نقارن بين الجزئيتين في المناسبتين فنقول : لم اختلفت الجزئيتان هنا : ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ و ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾؟ بينما اتفقت الجزئيتان السابقتان في كل من المناسبتين ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ ؟ .

والجواب على ذلك أن نفسية يعقوب في المناسبتين مختلفة . فحينما قال في المرة الأولى : ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ كان حديث عهد بحزن، وعنده ثقة مطلقة في عون الله عز وجل، مع أمل غير مبين، فصبر واحتسب، وكان عنده شقيق يوسف الذي أخذ يتعزى به عنه وكان بمثابة القشرة التي تغطي جرح يوسف .

ومرت السنون ولم يندمل الجرح ، وفجأة إذا بهذه القشرة تنزع في عنف ودون مقدمات ، ممثلا ذلك في عدم عودة الشقيق فيتدفق الدم حاراً وبغزارة ، ويبقى الجرح عارياً .

وهنا يبدو إيمان يعقوب غير المتناهي ، وثقته في الله غير ذات الحدود .

وبقدر ما كانت هذه الصدمات من العنف والقسوة ، بقدر ما كان إيمان يعقوب في مستواها ، بل وفوق مستواها .

ونستطيع أن نقول : إن هذه الجزئية ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾

في المناسبة الأولى ، تمثل طفولة الألم عند يعقوب وإيمانه المطلق في الحق جل وعلا .

وإن هذه الجزئية : ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ في المناسبة الثانية تمثل هذا الألم وقد بلغ أشدّه واستوى ، وذلك الإيمان وقد بلغ أعلى قممه التي يمكن لعقل بشري أن يتصورها .

« وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام : ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف ؟ قال : وجد سبعين ثكلى . قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة قط » (١) .

وهل يستغرب الشيء من معدنه .

وهل يُنبت الخطيَّ إلا وَشيجُهُ ... وتُغْرَسُ إلا في منابتها النَّخْلُ (٢)

أو لم يقل الله عز وجل في كتابه العزيز عن موقف أبينا إبراهيم من مشركي قومه وجزائه له ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً ﴾(٣) .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية الأخيرة التعقيبية من الآية : ﴿ إنه هو العليم الحكيم﴾ فإننا نتبين ثقة نبي الله يعقوب المطلقة في الله تعالى .

وهو بذلك يُلقي درساً نافعاً على كل ذي بصيرة نيّرة وأُذن مصغية وقلبٍ واعٍ .

وتأمل الصيغة التي جاءت فيها هذه الجزئية ، والتي تنقل لنا إيمان يعقوب بأن الله عز وجل فقط هو العليم الحكيم .

---

(١) الكشاف ١٥١/٢ .
(٢) البيت لزهير بن أبى سلمى ، الشاعر الجاهلى .
(٣) سورة مريم : ٤٩ ، ٥٠ .

إنه العليم ببواطن الأمور ، ومن ذلك المكان الذي فيه ابنه الحبيب يوسف وحقيقة التّهمة التي زعم الإخوة ثبوت لصوقها بابنه الأصغر الحبيب .

فهاتان المسألتان أهم ما كان يشغل بال نبي الله يعقوب .

وإن الله عز وجل ، يخضع كلُّ ما يجري في هذا الكون لإرادته ولحكمة يريدها وإن خفيت على الكثير من البشر .

وحينما نتأمل هاتين الجزئيتين ذواتي العلاقة الوثيقة بينهما : (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم) نجد أن كلا منهما حددت معنى الأخرى أو وجهته وجهة معينة .

فحينما نتأمل الأولى في ضوء الثانية فإنا لا ننتهي فقط إلى أن الأولى مجرد أمل ورجاء كبيرين في الله تعالى من العبد العاجز يعقوب ، وإنما ننتهي أيضاً إلى أن يعقوب إنما يستمد قوله هذا من علم الله اللّدنّيّ الذي يصطفي الله تعالى به من يشاء من عباده الصالحين .

ألم يأت بعد قليل على لسان يعقوب قوله تعالى : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ؟

ألم يأت عنه قوله تعالى : ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ؟

ألم يأت على لسان يعقوب قوله تعالى : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ؟

وفي ضوء هذه العَلاقة بين الجزئيتين ، نستطيع أن نفهم من قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ أن ما سبق أن جاء على لسانه مباشرة : (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) هو من باب العلم اللدني الذي مصدره العليم الحكيم .

فإذا عدنا إلى تأمل هذه الآية ككلّ (قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً

فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾ فبالإضافة إلى أن الجزئية الخاصة بأبنائه كلها عفة وطهر ، فإنا نتبين أن يعقوب يتجه سريعاً من مخاطبة أبنائه ، إلى الكلام عن نفسه ، إلى الكلام عن الذات العلية

وحينما نتأمل كمية الكلام التي خص بها أبناءه ونفسه ، وكمية الكلام التي توجه بها إلى الذات العلية ، فإنا نجد الكمية الأخيرة هي الأكبر .

يقول عن أبنائه ونفسه : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » .

ويقول عن الذات العلية : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » .

بل إننا حينما نتأمل الجزئية التي يخص بها نفسه ﴿فصبر جميل﴾ نجده يعبر فيها عن امتثاله لإرادة الله تعالى وأمره بالصبر الجميل .

إنها تخص الذات العلية بأكثر مما تخص يعقوب .

وكل ذلك من الأدلة الكثيرة على إقبال يعقوب بكليته على الله تعالى .

وهذه كلها دروس بليغة يلقيها نبي الله تعالى يعقوب على أمة الإسلام ، فالإقبالَ الإقبالَ على الله .

ونستطيع أن نقول أيضاً : إن هذه الجزئيّة التي تخصّ الأبناء ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ تشمل يعقوب أيضاً ، إذ تدل على عدم اطمئنانه لصدق كل ما قالوا ، وأنهم قد قاموا فعلا بعمل سيّئ مّا في غير صالح بنيامين .

وبعد هذا الكلام الطيب الطاهر من نبي الله يعقوب لأبنائه يتولى عنهم راضي النفس بقَدَرِ الله وقضائه ، مذعناً لإرادته وأمره ، خالياً مع نفسه التي غطى فيها الحزن لأجل يوسف على ما عداه .

وينبغي أن نشير إلى أن السبب الذي من أجله تذكّرَ يعقوب يوسف فقط وجاء على لسانه ﴿يا أسفي على يوسف﴾ أن عند يعقوب بصيصاً من الاطمئنان عن الأصغر والأكبر ، وليس عنده شيء من ذلك عن أحبِّ أبنائه إليه ،

يوسف عليه السلام ، الذي لم يكن ميتاً فيسلي وينسى ولا حياً أوبته تُرْجَى .

وقد وجد يعقوب في هذا القول نوعاً من العزاء والسلوى . وهو قول نعتقد أن يعقوب يردده باستمرار .

وسواء سمعه أبناؤه منه حالا بعد أن تولى عنهم ، ثم بعد ذلك لتكريره إياه ، أو أنهم سمعوه بعد ذلك الوقت ، فالمؤكد أنهم سمعوا ذلك القول منه مرّات ومرّات . بدليل قولهم :

{ تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين }

والمعنى : لا تزال تذكر ابنك يوسف ، حتى تكون مشرفاً على الهلاك بسبب إلحاحك في ذكره أو تكون من الهالكين فعلا .

وإن لنا لأكثر من وقفة عند هذه العبارة على لسان يعقوب « يا أسفي على يوسف » .

فهي من ناحية تدل على مبلغ أسف يعقوب على يوسف ، حتى إنه لينادي الأسف الخاص به بقوله : « يا أسفَى » .

والمعتقد أن الأصل يا أسفِي ، وقد قلبت ياء المتكلم ألفاً كما تقول : يا غلاما في يا غلامي .

ثم إنها تتضمن الجناس الذي أتى عفواً ودون تعمّد ولا تكلف في « أسفي » و « يوسف » .

وحينما يأتي في هذه الصورة العفوية ، يضيف إلى جمال العبارة المعنوي ، جمالا موسيقياً تطرب له الأذن وترتاح له النفس .

وهذا القول « يا أسفَي » لم يأت في القرآن الكريم إلا على لسان يعقوب نبي الله .

ونستطيع أن نلمح الفرق بين ما قاله يعقوب حينما حلت به المصيبة « يا أسفي » وبين الاسترجاع ، الذي هو في حقيقته خاص بالأمة المحمدية ، أي القول في المصيبة : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وهذا التأسّف في الحقيقة إنما هو نفثة المصدور يعقوب عليه السلام ، المحزون على ابنه الحبيب يوسف .

ولم يكن هذا القول منه موجهاً إلى أبنائه الذين هم في اعتقاد يعقوب السبب الأول في هذا القول منه ، بقدر ما هو محاولة للتنفيس من الكرب العظيم الذي هو فيه .

بل إن يعقوب لا يفاتح أبناءه مطلقاً فيما حلّ به ولا يعاود الحديث في هذه الموضوعات البتة ، وإنما الذي يبدأ بالحديث وفي الموضوع بالذات ، هم الأبناء كما سنرى .

والحقيقة أن ابتلاء الله تعالى ليعقوب لم يقف عند هذا الحد ، فقد تخطاه إلى ابتلاء من نوع جديد . فنتيجة لبكاء عينيه المتواصل منذ غياب يوسف الذي استمر سنوات وسنوات ، وازدياد سيلان الدمع منهما لابتلائه بغياب ابنيه ، فإن عينيه الآن أضعف من أن تتحملا جريان هذه الأنهر مع الدمع مع احتفاظهما بالرؤية : ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ .

وهكذا تحوّل يعقوب ، إضافة إلى كل هذه الأحزان إلى شخص أعمى لا يبصر بكلتا عينيه . ولم يكن له متنفس من هذه الأحزان ، بل كانت في تجمع مستمر ، فامتلأت نفسه بها .

واستمرت الأحزان تنبع من ذات هذه النفس الممتلئة بها حتّى غدت كالإناء الممتلىء الذي أُحْكِمَ غطاؤه ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾.

ونود أن نعرف لماذا جاءت العين في صيغة المثنى : « وابيضت عيناه » مع أن المفرد في مثل هذه الحال يفي بالغرض ويغني عن المثنّى ؟

والجواب على ذلك أن صيغة المثنى هنا أبلغ من المفرد ، لأنها تثبت ، بما لا يدع مجالا للتساؤل ، بأن العمى كان من نصيب العينين معاً وليس من نصيب واحدة فقط ، وهو الذي من الجائز أن يفهم من صيغة المفرد فيما لو قدر لها أن جاءت .

وإن في ذهاب ماء العينين معاً دليلا على أن الحزن فوق كل احتمال .
وكأن الحزن ، لامتلاء نفس يعقوب به ، حاول أن يجد له مخرجاً في صورة الدموع من عينيه ، فذهب بمائهما ولم يغادر ؛ لأن النبع الداخلي أكبر من التصريف .

وإن هناك نقطة مهمة نود الوقوف عندها هي دور الفاء من قوله تعالى : « فهو كظيم » .

وإن فرقاً جوهرياً في الدور الأبلغ الذي تلعبه الفاء هنا ، والدور الذي تلعبه الواو مثلا والتي لم تأت هنا .

إن الواو لو جاءت هنا فقيل : وهو كظيم لكان دورها تقريرياً صرفاً ولا تضيف جديداً ، خاصة وقد سبقتها واو من جنسها في قوله تعالى : « وابيضت » .

أما الفاء التي جاءت « فهو كظيم » فإنها تضيف جديداً ، إذ إنها من ناحية غير الواو التي سبق أن جاءت في « وابيضت » .

وإن التحول من حرف إلى حرف مما يشد الانتباه ويثير الاهتمام .

وحينما نبحث من ناحية أخرى عن السر في هذا العدول إلى الفاء فإننا نتبين أن ابيضاض العينين سبب جديد في الحزن الذي امتلأت به نفس يعقوب فغدت كالإناء الممتلئ الذي ربط على ما فيه ، كيلا يخرج منه شيء .

وهكذا يتضح الفرق الجوهري بين الواو والفاء ، إن الأخيرة تنفرد بأنها تضيف جديداً أو تشير إلى أن ابيضاض العينين سببٌ في حزن جديد أضيف إلى حزن يعقوب القديم ، فأصبح بذلك كظيماً ، وهي صيغة مبالغة تدل على أنه عليه السلام ، لم يَشْكُ إلى مخلوق ، وإنما كان يكتم حزنه في نفسه ويُبقي همّه في صدره .

فكأن للفاء فضلا جديداً في تحديد معنى اللفظ « كظيم » وأنه صيغة مبالغة ، وليس بمعنى مكظوم . لأن صيغة المبالغة هنا تتلاءم مع الحزن الجديد

الذي حل بيعقوب بسبب ابيضاض كلتا عينيه . وقد عرفنا أن للفاء دوراً في ذلك .

ونودّ الآن أن نعرف الفترة الزمنية التي استغرقها ابيضاض عينيه في قوله تعالى:( وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ) .

والمعروف أن مثل هذا الابيضاض يستغرق فترة زمنية قد تطول وقد تقصر . فإن الابيضاض لا يمكن أن يطرأ فجأة .

فإذا عرفنا أنه من نصيب العينين معاً وليس من نصيب عين واحدة ، وأن العادة جرَتْ بأن تسبق إحدى العينين الأخرى ، فهذا دليل على أن هذه العملية استغرقت بالضرورة فترة زمنية ذات طول معين .

كل ذلك يجري وقلوب أبناء يعقوب تنفطر أسى على والدهم ، وأنفسهم تذهب حسرات على الحال السيّئ الذي آل إليه .

وليس ذلك فحسب . بل إنه يبدو أن الأمور لا تريد أن تقف عند حد . فقد كان والدهم يتردد على شفتيه « يا أسفي على يوسف » .

وكان الإخوة يسمعون هذا القول منه باستمرار وكلهم أمل أن يكف يعقوب عن ترديد هذه العبارة التي تصدر من قلب مجروح ونفس مفعمة بالآلام . خاصة وأنه يعتقد أن هذه العبارة لم تكن تجري على لسانه في الفترة التي كان يتعزى فيهابينيامين . وحينما ذهب بقي مكانه خالياً وكُشف الغطاء عن حبّ يوسف .

وبما أن يعقوب ليس عنده شيء يدخل على قلبه الاطمئنان من جانب يوسف ، بعكس الأخوين : الأصغر والأكبر ، لذا اجتمع الحب وعدم الاطمئنان على قلب يعقوب المتألّم ونفسه البائسة فتجسد ذلك على لسانه في تلك العبارة التي يرددها باستمرار ، أراد أم لم يرد . « يا أسفَي على يوسف»

وكان الأبناء يرقبون كل ذلك في أسى من بعيد ، ولعلهم يتظاهرون

بعدم سماع شيء من ذلك ، مع أنهم في حقيقتهم ، كلهم آذان واعية لكل حرف وآهة تمرّ بين شفتي يعقوب .

ولكنهم كان يحدوهم في أول الأمر الأمل في أن يعود حاله ، على أقل تقدير ، إلى حاله قبل غياب بنيامين .

ونستطيع أن نفهم أن هؤلاء الأبناء البررة ، قد حاولوا كلهم ، بجميع الوسائل الممكنة ، أن يصرفوا يعقوب عما هو فيه .

وكان كل واحد منهم يتمنى لو أنه حل في قلب والده ولو محل بنيامين ؛ ليس في هذه المرة حسداً لبنيامين مثلا ، ولكن شفقة بيعقوب وأملا أن ينسى بذلك الحب يوسف الذي ما فتىء يذكره في تلك العبارة ، التي تنطلق خناجر تمزق أفئدة هؤلاء الأبناء البررة .

وفي الوقت الذي سعى فيه الأبناء للعمل على نقصان ما فيه يعقوب ، إذا بالزيادة تحل حينما ابيضت كلتا العينين .

ونستطيع أن نفهم الألم الذي حل بالإخوة حينما ابيضت إحدى العينين. وكانوا يتمنون النقصان ، ولعلهم تمنوا أن يقف الحال عند ترديده هذه العبارة « يا أسفي على يوسف » وأن تبرأ العين المريضة . وإذا بالعين الأخرى تتبع أختها في الطريق نفسه .

وقد صُعق الأبناء لهول المضاعفات التي انتابت والدهم الحبيب .

إنهم يسعون وراء النقصان ، وإذا بالزيادة تحلّ . وهي زيادة تجاه السوء أبدا .

وهنا ينفجرون في أسى ولوعة وحسرة ، منبهين أباهم في إشفاق ليس عليه من مزيد بضرورة التَّنَبُّه للخطر المحدق به إذا استمر في مطاوعة نفسه وعدم كبح جماحها . قال تعالى:﴿ قالوا تا لله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾ .

وبتأمل هذا الكلام يتضح أنه اشتمل على تاء القسم . والمعروف أنها تتضمن معنى التعجب .

فكأن الأبناء بلغ بهم التعجب والاستغراب من إلحاح يعقوب في ذكر يوسف حداً بعيداً .

ويبدو ذلك من هذه الصورة القوية جداً من التعبير .

كما اشتمل على لفظ الجلالة ، المُقْسَم به ، وما كان لهم أن يقسموا إلا بالله العظيم .

والحقيقة أن هذه الصيغة بالذات « تا لله » جاءت في هذه السورة أكثر من مرة .

وإن مجيء هذه الصيغة هنا تدل على أننا بصدد شخصيات متجاوبة مع الأحداث متفاعلة مع المواقف .

وإن الأبناء ليجيء على ألسنتهم جملة « تذكر » ولا يجيء جملة : تفكر ، مثلا ، فدل ذلك على أنهم دائمو المتابعة لوالدهم الحبيب ، وكلهم آذان صاغية لما يخرج دائماً من شفتيه وبين جنبيه من كلمات وزفرات .

وكانوا بالتالي دائمي السماع والتأثر لهذا القول على لسانه ، من قبيل الإشفاق عليه .

ولا يستبعد مطلقاً أن يكون في الوقت نفسه هناك شعور بالنقمة على هذا الشخص ، السبب الأول لكل هذه المنغصات .

وهنا يجيء على ألسنة الإخوة اسم يوسف صراحة . إنهم مضطرون للتفوه باسمه لأن يعقوب ذكر اسمه صراحة في الآية السابقة .

ومع ذلك هم لا يتعرضون ليوسف إلا بالقدر الضروري الكافي ، المفروض عليهم أن يتعرضوا له به .

ولولا أن ذكر اسمه ضروري لفروا إلى ضمير الغائب للدلالة عليه

ولقالوا:« تذكره » ولكنهم يريدون أن ينبهوا أباهم إلى أن يوسف بالذات هو سبب كل الذي حاق به من شبه هلاك قد يصير هلاكاً فعلا .

إنهم يتعجبون من ذكر يعقوب العقيم ليوسف ، وانتقاله المفاجئ إليه وهو الذي مضى على غيابه سنوات وسنوات .

وكان من الجائز في اعتقادهم أن يذكر بنيامين والأخ الأكبر حديثي عهد بالفراق ، وأن يستتبعه حزن معقول عليهما أو على أحدهما وليس هذا الحزن الذي لا يعرف له نظير .

وإن كلامهم فيه الصراحة والوضوح وقوة الاندفاع بعد طول حبس وكبت ﴿تا لله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾. وإن قصدهم من ذلك حمل يعقوب على كبح جماح عواطفه كي يعيش ما بقي من عمره في حدود الحالة الطبيعية التى تسمح بها سنّه .

وكان لزاماً على يعقوب عليه السلام أن يجيب أبناءه بعد ذلك السكوت الطويل .

والحقيقة أن يعقوب دائماً هو ذلك الشيخ الوقور ، الذي يزن كلامه الضروري بميزان الحكمة .

في مسألة يوسف لا يزيد مطلقاً على القول : ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ .

ويظل مقبلا على أبنائه بوجهه السمح ونفسه المطمئنة . ولا يفاتحهم في هذه القضية حتى يطلبوا إرسال الشقيق معهم كما عرفنا .

وفي هذه المرة ، بعد النبأ الجلل عن بنيامين والأخ الأكبر وابيضاض عينيه لا يفاتحهم في أي مسألة حتى يثير هؤلاء الأبناء البررة مشاعره بقولهم الذي يفيض حناناً به وإشفاقاً عليه .

وماذا قال يعقوب رداً عليهم ؟ .

قال تعالى على لسانه : ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

إنه يشير صراحة إلى أن كل ما يصدر عنه من شكوى ، بما في ذلك قوله: ﴿يا أسفي على يوسف ﴾ الذي يتضمن شيئاً من بثه وحزنه ، والذي سمعه الأبناء منه مراراً ، إنما هو موجّه إلى الله تعالى .

لقد كان على اطمئنان تام بأنه ليس هناك مخلوق يمكن أن يبلغ إشفاقه عليه جزءاً من إشفاق أبنائه البررة عليه . ومع ذلك فهو إنما يخصّ بشكواه أرحم الراحمين ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، والذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

وإن لسان حاله عليه السلام يقول : إن كان ما صدر عني من شكوى أقصد بها الله تعالى ولا أقصد بها سواه ، قد حملكم على مفاتحتي في هذه المسألة التي لا يد لي في شدة حزني بسببها ومخاطبتي في هذه الطريقة التي تفيض رحمة بي وشفقة عليّ ، فإن ذلك من رحمة أرحم الراحمين الذي يعلم ما توسوس به نفس كل مخلوق .

وتأمل صيغة الفعل التي جاءت فيها جملة « أشكو » إنها صيغة المضارع وليس الماضي كي يقال ربما كانت الشكوى أول الأمر لله تعالى وبعد تجاوب الأبناء الإنساني كان لهم حظ من نوع ما فيها .

وإن هذه الصيغة « أشكو » تنسحب على الحاضر والمستقبل ولها أيضاً جذورها في الماضي حتى يأذن الله تعالى بالفرج .

وهي تصور طبيعة يعقوب الدائمة في التوجّه إلى الله تعالى في السراء والضراء .

وهذا درس بليغ نافع يلقيه علينا نحن المسلمين يعقوب عليه السلام .

وإن الصيغة الزمنية نفسها تستعمل في جملة « وأعلم » من قوله:﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ وهي تشعرنا أنها بالنسبة للماضي السر في بقاء الأمل بكون يوسف ما زال حياً يرزق ، وبالنسبة للحاضر والمستقبل ، الأساس للأمل العريض الذي يبدو من القول على لسان يعقوب نبي الله ﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾.

لقد جرت العادة بأن نتجاوب عاطفياً مع القول :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة

أما يعقوب عليه السلام فإنه إنما يشكو بثه وحزنه للذي يعلم السر وأخفى

وتأمل قوله : « من الله » الذي ما كان يعقوب ليحذفه مع إمكان ذلك في قوله تعالى : ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

فهنا اعتراف واضح من العبد الفقير العاجز بأن الله عز وجل هو مصدر العلم اللدنّي الذي يتصرف في ضوئه وينطق بوحيه .

وإن يعقوب في هذه العبارة التي كلها اعتراف بمنّ الله وفضله ، وكلها إقرار بضعف يعقوب وفقره ، ليقرر المنزلة التي حباه الله تعالى بها واصطفاه لها ، وأن هذه المنزلة ليست لواحد من الأبناء التسعة المخاطبين في تلك اللحظة .

فإذا عرفنا أن الأخوين الغائبين الأصغر والأكبر ، لم يكونا نبيين ، ننتهي إلى أن يوسف عليه السلام فقط النبيُّ من أبناء يعقوب عليه السلام . وكأن النبوة محصورة الآن في يعقوب ويوسف . والله أعلم .

فإذا انتقلنا إلى الآية على لسان يعقوب ، التي تعتبر في حقيقتها تبيينا للعلم اللدني الذي خصه الله تعالى به ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ فإن كل حبة من عقد هذه الآية خليقة بإمعان النظر وإدامة التأمل.

فهناك أولا التوطئة بالنداء « يا بني » التي كان بإمكان الأب يعقوب أن يستغنى عنها لو شاء ، ولكن الحنان الفائق الذي حباه الله به لأبنائه . لم يكن ليسمح له بذلك .

ولا ننسى أن يعقوب يخاطب أبناءه الذين لا يزال يعتقد أن لهم يداً على أقل تقدير فيما حل بيوسف ، ولكن الجولة الأخيرة دائماً لمحبته وحنانه .

فإذا انتقلنا إلى مناسبة سابقة ، استعمل فيها يعقوب توطئة النداء نفسها : أعني ما جاء على لسانه رداً على ابنه يوسف الذي قص عليه رؤياه ﴿ يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ وعرفنا أن يوسف المخاطب هنا صغير بريء ، وأن الإخوة هناك كبار وفي نظر يعقوب مذنبون ، أدركنا إلى أي حد كان يعقوب عليه السلام عادلا في توزيع ما يملك على كل أبنائه دون تمييز(١) .

فإذا انتقلنا إلى جملة « اذهبوا » من قول يعقوب : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ استطعنا أن نستشف منها تفاؤل يعقوب بأن يذهب هؤلاء الإخوة التسعة ويعودوا في الوقت نفسه سالمين موفورين .

وإن لنا لعضداً على فهم كهذا في قوله تعالى على لسان يوسف خطاباً لإخوته : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

يضاف إلى هذا أن إشفاق يعقوب الدائم وتلهّفه على أبنائه مقويان لهذا الفهم الذي يفيده أصلا الفعل ذهب في هذين السياقين .

فإذا انتقلنا إلى جملة « فتحسّسوا » ازداد الأمل وضوحاً وإشراقاً .

---

١ ـ ألمحنا من قبل استفادة من هذه التوطئة «يابنى» الى الفرق بين طريقة الآب الحنون فى الحديث ، وطريقة أخ من اكثر الاخوة برا باخوته ، أعنى الأخ الاكبر الذى وجه الخطاب اليهم دون شىء من توطئة فيما جاء على لسانه من قوله تعالى: « ارجعوا الى أبيكم فقولوا ... »

فالتحسس طلب الأخبار في الخير ، فيعقوب الآن كله أمل واطمئنان وثقة في أن يوسف ما زال حياً يرزق ، وفي حالة حسنة .

لا . . ليس ذلك فحسب ، بل إنه كله أمل واطمئنان وثقة في أن هذه الحال الحسنة ستكون من نصيب شقيق يوسف ، على الرغم من ثبوت ظاهر السرقة عليه .

ولكن بصيرة يعقوب النيّرة تقضي باستحالة تورط هذا الشقيق في السرقة لذا هو يطلب من أبنائه في رفق أن يتحرّوا الأخبار الحسنة الخيرة الطيبة عن يوسف وأخيه .

وليس في إمكاننا إلا أن نقف عند حرف الفاء من قوله « فتحسسوا » فنتساءل لماذا لم تأت الواو أو ثم بدلا من الفاء ؟

والجواب على ذلك أنه لو جاء : يا بني اذهبوا وتحسسوا . لتساوي الذهاب والتحسس في الأهمية . ولو جاء : ثم تحسسوا . لدل ذلك على أن المهم في الأمر الذهاب ، بينما يأتي التحسس بعد ذلك بكثير في الأهمية .

ولكن حينما يجيء على لسان يعقوب « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » فدل ذلك على أن التحسس أهم ما في الموضوع وأن الذهاب سبب ضروري فيه فقط .

فإذا انتقلنا إلى قوله : « من يوسف وأخيه » فالذي يروعنا حقاً هو هذا الترتيب .

ولو كنا نتعامل مع شخص عادي لكان ترتيب مثل هذا الكلام في هذه الصورة : فتحسسوا من بنيامين وأخيه . لماذا ؟ لأن هناك معلومات من نوع معين عن بنيامين ، وليس هناك شيء من هذه المعلومات عن يوسف .

إذن فالمنتظر في هذه الحالة أن يكون الابتداء ببنيامين فبهذا يقضي المنطق . وربما اتخذ هذا الشخص العادي أمله المعقول عن الابن الأول مطية لأمله البعيد عن الابن الثاني .

بل إننا نميل إلى أن هذا الشخص العادي لن يجد عنده الجرأة لأن يعبّر في موقف جدي كهذا عن أمل هو أقرب إلى الأحلام منه إلى أي شيء آخر .

أما فيما يتصل بيعقوب عليه السلام ، فنحن بصدد شخص من نوع آخر ، شخص اصطفاه الله تعالى بالنبوة وحباه بالعلم اللدني ، فلم تكن هذه الجزئية على لسانه ﴿ من يوسف وأخيه ﴾ مراعى فيها التدرج بالأمل من القريب إلى البعيد ، من الممكن إلى المستحيل .

ولكن هذا الترتيب روعي فيه حبه ليوسف ، والإيمان المطلق في قدرة القادر على كل شيء ، والثقة غير ذات الحدود ، بإلهام من الله تعالى ، بأن لكل ضيق فرجاً .

وبما أن المحن قد بلغت أوجها وغايتها ، فإن الإيمان بالله العلي القدير يجب أن يبلغ أوجه وقمته . ومع الإيمان الأمل والرجاء والتفاؤل .

لا . . ليس ذلك فحسب ، بل إن كل ذلك يجب أن يكون القمة التي ليس وراءها قمة . لأن كل ذلك متعلق بالذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

من هنا جاء على لسان يعقوب عليه السلام تقديم يوسف الممثّل للأمل والرجاء الكبيرين في قوله تعالى : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ .

وبهذه المناسبة نقول : إن « وأخيه » المعطوف على « من يوسف » يرتفع مستوى الأمل والرجاء فيه بسبب العطف على يوسف إلى مستوى الأمل والرجاء السابقين .

وليس يخاف أنه ليست هناك إشارة إلى الأخ الأكبر . وهذا شيء طبيعي لأن في عودة الأخوين عودة للأخ الأكبر الذي قرر بمحض إرادته البقاء في مصر ، حتى يأذن له أبوه أو يحكم له خير الحاكمين .

فإذا انتقلنا إلى هذه الجزئية ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ فإنا ننتهي إلى أنها

تتعلق في مجموعها بهؤلاء الأبناء التسعة الذين يخاطبهم يعقوب عليه السلام .

وهي تنهاهم عن اليأس من رَوْحِ الله وتنفيسه وفرجه .

وحينما نتأمل هذه الجزئية والجزئية السابقة عليها معاً ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ﴾ فإنه يتبين أن الجزئية الأولى الخاصة بيعقوب تصوره القمة في الأمل والتفاؤل .

ولا يخفى أننا بصدد نبيٍّ من أنبياء الله تعالى يهتدي بنوره وينطق بوحيه وإلهامه وأين منزلة هؤلاء الأبناء من منزلة أبيهم الدينية العالية ؟

إنهم ليسوا مهيئين أساساً لأن يكون لهم مثل هذا الأمل الكبير في الله تعالى ، وبالتالي فهم غير مهيئين لتفهم أمل والدهم يعقوب الكبير ، خاصة فيما يتعلق بالتحسس من يوسف بالذات .

إن يعقوب عليه السلام يمثل منزلة دينية من طبقة معينة ، والأبناء يمثلون منزلة دينية من طبقة أخرى ، بعيدة كل البعد عن طبقة يعقوب الذي كان على علم تام بحقيقة موقف أبنائه من أمله الكبير الذي أساسه الإيمان العميق .

وهنا يسعى عليه السلام جاهداً لتهيئة أبنائه لتلقي هذا الأمل في ارتياح وتفهمه .

وكان ذلك في صورة هذه الجزئية التي قلنا:إنها تتعلق في مجموعها بالأبناء التسعة ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ وهي جزئية تدل عل أن شيئاً من اليأس ، خاصة فيما يتعلق بيوسف ، قد دب إلى نفوس الإخوة .

بل إنها تدلّ أيضاً على أن تسرب اليأس في مثل مسألة يوسف أمر ليس بمستبعد .

ولكن يعقوب له رأي في هذا اليأس وفي النفوس التي يجوز بحقها وهو ما عبر عنه في الجزئية الثالثة والأخيرة من الآية كما سنرى .

وإن يعقوب حينما ينهى أبناءه عن اليأس من روح الله ، إنما يعين لنا منزلة هؤلاء الأبناء الدينية .

إنه وهو نبي الله لم ييأس قط من روح الله ، بل إنه تخطى مرحلة اليأس إلى الأمل ، بل إنه تخطى مرحلة الأمل إلى مرحلة الأمل العالية التي ليس وراءها مرحلة .

وهو إنما وصل إلى ما وصل إليه لأنه ببساطة نبيّ .

أما هؤلاء الأبناء التسعة فليسوا كذلك . إنهم من عباد الله الصالحين فقط .

وقد عين لنا يعقوب عليه السلام منزلتهم الدينية بهذه النصيحة التي أسداها إليهم والدهم الحنون نبي الله يعقوب ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية الثالثة من الآية ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ يتبين أننا بصدد قوة في التعبير واضحة .

فهنا إنّ التي تفيد التوكيد ، ولا النافية ، و أداة الاستثناء إلا ، وفي ذلك حصر لليأس من روح الله على الكافرين .

أما المسلمون لله رب العالمين فإن هذا النوع من اليأس لا يجوز بحقّهم وقد جعلهم خارجه حصر اليأس في الكافرين .

ولا يخفى أن هذه الطريقة في التعبير جعلت المعنى غاية في الوضوح ، وأن هذه الجزئية الثالثة ، التي تتحدث عن اليأس ، قوة للجزئية الثانية التي تشير إليه .

وإذا كانت الثانية تنهى الأبناء عن اليأس من رَوْح الله ، فإن الثالثة تحصره في الكافرين ، وفي ذلك أكبر نهي للأبناء عن اليأس وإخراج لهم من زمرة اليائسين من روح الله .

وإن الهدف البعيد الذي ينشده يعقوب عليه السلام ، تزويده لأبنائه بأكبر قسط من أمله الكبير في الكبير المتعال ، وقد تم له ذلك فعلا .

وأكبر دليل على ذلك أن الإخوة لا ينبسون ردّاً على والدهم ببنت شفة ، ولا نراهم إلا واقفين بانكسار أمام العزيز بعد أن قاموا بالرحلة الثالثة إلى مصر .

ولا يخفى أن الاستعداد لهذه الرحلة يستغرق زمناً ، وهذا شيء مفهوم .

أما الشيء الذي هو بحاجة إلى تبيين فالفترة الزمنية التي قضاها الإخوة عند والدهم قبل القيام بالرحلة .

والحقيقة أن الإشارة الوحيدة للفترة الزمنية التي قضاها الإخوة عند يعقوب هي قوله تعالى : ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ وواضح أنها فترة تميل بطبعها إلى الطول النسبي .

فإن العبارة القرآنية تعني أن يعقوب كان يرى إلى درجة ما بكلتا عينيه ، ثم حل العمى بهما .

والمعروف أن ذلك لا يحدث طفرة واحدة ولكن بالتدريج ، والمعروف أيضاً أن إحدى العينين تسبق الأخرى . فدل ذلك على أن هذه الفترة تميل إلى الطول النسبي .

والذي يجعلنا نقيد الطول بأنه نسبي أن كظم يعقوب للحزن المتجدد سبب في اتجاه العينين سريعاً تلك الوجهة المعينة .

وهذا يعني أيضاً أن الإخوة طوال هذه الفترة لم يكونوا يعرفون كيف يتصرفون بحق أبيهم ؟

وحينما ابيضت عينا يعقوب وفاتحه الأبناء في ذكره المستمر ليوسف إذا به يصرح لهم بأمله الكبير في الله تعالى ويفتح لهم باب البحث عن يوسف وأخيه على مصراعيه . فتجدد الأمل وتحدد العمل أيضاً .

وإن في الاستطاعة أن نقول أكثر من شيء حول هذا الموقف المتطور من جانب يعقوب والموقف المتطور أيضاً من جانب الإخوة .

ففيما يتصل بموقف يعقوب عليه السلام ، كلما استحكمت حلقات الشدة عليه ضيقاً ، ازداد صبره عمقاً وقوة .

وحينما بلغت الشدائد ذروتها كان عند نفس يعقوب الطيبة النقية

الطاهرة ، رد فعل تفاؤلي ، يطاول أعلى الشدائد ذروة بل يتخطاها ويحلق فوقها بعيداً بعيداً ، محاولا إحياء الأمل في أنفس أبنائه التسعة ورفعه إلى أعلى الدرجات الممكنة .

وهكذا يتضح أن الموقف المتطور ليعقوب عليه السلام ، لا يقتصر على الصبر الجميل ، وإنما يشمل في الدرجة الأولى الأمل والتفاؤل العجيبين .

وفيما يتصل بالأبناء فإن الموقف المتطوّر لهم يبدو واضحاً جلياً في تجاوبهم الإنساني النبيل ، وتعاطفهم مع والدهم . لدرجة أنهم لا ينبسون ببنت شفة رداً على كل ما قاله يعقوب لهم .

فما معنى هذا ؟ خاصة بالنسبة ليوسف .

معنى هذا أنهم سحبوا زعمهم السابق بأن الذئب قد فتك بيوسف وأنهم تخلصوا من وجوده بينهم ولكن ليس عن طريق مغادرته هذه الحياة الدنيا وأن قول يعقوب لهم في قضية يوسف: « بل سولت لكم أنفسكم أمرا » حقّ .

لا . . ليس ذلك فحسب ، بل إن الإخوة ليتحملون بسكوتهم فوق ما يطيقون ، ولكنهم يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم لذلك يستحقون .

فإن يعقوب عليه السلام أجابهم في مسألة بنيامين بالقول: ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ مع أنهم في الحقيقة بريئون .

ولكن ما الذي يمكن أن يقولوا ؟ هل يستطيعون أن يقولوا شيئاً عن يوسف وإن سكوتهم أبلغ من القول لأنهم لو قالوا شيئاً فلن يؤدي إلا إلى المعنى الذي يفيده السكوت ؟ إذن فالصمت أَوْلَى .

وهل يستطيعون أن يقولوا شيئاً عن مسألة بنيامين ؟

إنهم صادقون في قولهم السابق ، وما الشيء الجديد الذي يمكن أن يضيفوه لو أرادوا أن يقولوا شيئاً ؟

ثم إنهم لو قالوا الشيء نفسه عن بنيامين ، فهل يحق لهم ألا يقولوا شيئاً عن يوسف ؟

لا . . لا يحق لهم ذلك .

إذن فالصمت التّام أولى . وإن كان يلحق بهم ضيماً من جانب بنيامين إلا أنهم في اعتقادهم مستحقون لذلك ، لأنه لولا مسألة يوسف التي هم سبب فيها لما كانت مسألة بنيامين .

وإن هذا الموقف الصامت من جانب الإخوة يعتبر من أكثر المواقف نبلاً ، كما يعتبر دليلا على شعورهم بتأنيب الضمير .

هذا بالإضافة إلى أننا في حقيقة الأمر أمام أول اعتراف علني للإخوة بأن لهم يداً في عدم عودة يوسف إلى أبيه .

وهذا الاعتراف أمام من ؟ إنه أمام من يهمه الأمر بالدرجة الأولى ، يعقوب عليه السلام .

والحقيقة أن هناك نوعين آخرين من ابتلاء الله تعالى ليعقوب وآله غطى عليهما ما حدث ليعقوب مباشرة .

هذان النوعان أحدهما قديم متأصل والثاني يلوح أنه حديث الحلول .

أما القديم المتأصل فهو الحاجة الملحة إلى الطعام بسبب المجاعة التي ما زالت تخنق الناس في كل مكان .

وأما الحديث الحلول فهو الفقر المدقع الذي حل بيعقوب وآله .

ويبدو هذان النوعان من الابتلاء بجلاء في القول الذي جاء على لسان الإخوة خطاباً للعزيز حينما دخلوا عليه ﴿ يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين﴾

**اخوة يوسف في مصر للمرة الثالثة :**

حينما نتأمل أولى آيات المشهد الذي يصور كل ما دار في الرحلة الثالثة

للإخوة تقريباً ، فإن الذي يلفت انتباهنا حقاً هو أنها خلافاً للعادة تنقل لنا لأول مرة ما يقوله الإخوة ابتداءً ، في أول لقاء لهم بالعزيز : ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ .

ولو أننا عدنا إلى المناسبتين الأوليين لوجدنا تجهيز الطعام ، هو ما يهتم له الإخوة حقاً ، وهو الذي تشير إليه الآيات ابتداءً .

فقد جاء في المناسبة الأولى قوله تعالى : ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، ولما جهزهم بجهازهم﴾ .

وجاء في المناسبة الثانية قوله تعالى : ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ؛ قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، فلما جهزهم بجهازهم﴾

وحينما نبحث عن السبب الذي من أجله سجلت الآية قول الإخوة في الرحلة الثالثة ابتداءً ، فإننا ننتهي إلى أن موقف الإخوة من الوجهة النفسية مخالف للموقفين السابقين .

كان الإخوة في الرحلة الأولى محتاجين للطعام حقاً ولكن مهما كانت مساعدة العزيز وإكرامه لهم فإنهم يظلون في حكم من يشتري بحر ماله ما يريد ، ولو كان الثمن رمزياً ، ولو كانت الحاجة للطعام ملحة ، ولو كان الطعام لا يوجد إلا عند العزيز .

إنه لا فرق بينهم وبين سواهم في هذه المسألة .

والشيء نفسه يقال عنهم في الرحلة الثانية . ولعل روحهم المعنوية ابتداءً كانت قمة في العلو والارتفاع .

فبالإضافة إلى أنهم سيدفعون من حُرِّ ما لهم ثمناً لما يشترون من طعام ، فإنهم مرفوعو الرأس لاستطاعتهم أن يجيئوا بأخيهم من أبيهم نزولا على رغبة العزيز ، وثبت بذلك صدق كل ما قالوا .

أما في الرحلة الثالثة فقد كانت نفسيات الإخوة غاية في الانكسار .

ذلك الانكسار الذي بدا عليهم منذ أن أخرج الصواع من رحل أخيهم .

وبدا على ألسنتهم أيضاً حينما قالوا للعزيز : ﴿ يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾ .

وأكّده رفض العزيز طلبهم رفضاً عنيفاً ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذن لظالمون ﴾ .

وقد أخذ الانكسار النفسي وانخفاض الروح المعنوي يستبدّ بهم خلال الفترة التي قضوها مع أبيهم في الشام بين الرحلتين الأخيرتين .

إن يعقوب لا يصدقهم ، ويحل العمى به ، وهم ولا شك سبب فيه لأجل ما فعلوا بيوسف .

ويوافقون على طلب أبيهم أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف بالذات وأخيه كذلك .

يضاف إلى كل ذلك أن المجاعة متمكنة من آل يعقوب وكذلك الفقر .

والحقيقة أن في الإمكان أن نضيف سبباً نفسياً أخيراً في هذه المسألة ، وهو أننا بصدد تسعة رجال قمّة في الصّحة والرّجولة وتشاء إرادة الله تعالى أن يسافروا من بلد إلى بلد ، لماذا ؟ كي يحضروا طعاماً لهم ولآل يعقوب .

لكل هذه الأسباب مجتمعة تنقل لنا الآية الكريمة ما جرى على ألسنة هؤلاء الإخوة خطاباً للعزيز في أول لقاء لهم في هذه الرحلة وهذا الشيء لم تجر به العادة كما أشرنا .

هذا الانكسار النفسي الذي لاح على الإخوة في المظهر وفي القول هو السبب الذي من أجله تفطّر قلب يوسف على إخوته رحمة بهم وشفقة عليهم .

وإن هناك لتطوراً آخر للإخوة تجاه الخير والصلاح ، نلمسه من قولهم .

ويتمثل ذلك في أننا بدأنا نلمس من قول الإخوة إقبالا على الله تعالى منهم بعيد المدى .

فلنتأمل قولهم في طلبهم الأول من العزيز : ﴿ يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾ .

ونود أن ننبه بالذات إلى هذه الجزئية « إنا نراك من المحسنين » .

فلنتأمل الآن ما يقوله الإخوة للعزيز نفسه في الرحلة الثالثة : ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ﴾ .

ونود أن ننبه أيضاً إلى هذه الجزئية ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾ فإنا نتبين أننا بصدد إقبال أكيد منهم على الله تعالى .

بل إننا لنستطيع أن نقارن بين المعجم اللغوي المائل إلى الجفاف ، الذي كان يدور على ألسنة هؤلاء الإخوة الناقمين على يوسف وأخيه لحب والدهما لهما أكثر من حبه لهم ، وبين المعجم اللغوي الذي يدور على ألسنة هؤلاء الإخوة أنفسهم ، الذين صفت نفوسهم وطهرت أفئدتهم .

لقد جاء على ألسنتهم من قبل مثلا : ﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ إلى آخر ما جرى على ألسنة هؤلاء الإخوة من حوار وادّعاء .

وإن المتأمل لقول الإخوة وحقيقة فعلهم يخيل إليه لأول وهلة أنه بصدد عصبة من الرجال كادت تقطع كل ما بينها وبين أرومتها الطيبة الطاهرة من صلات .

حتى إذا انتقلنا إلى القول الذي دار على ألسنة هؤلاء الإخوة أنفسهم ،

تبين لنا أن هذه العصبة قد عادت حقاً إلى الأصل الذي خرجت منه ، فالتحمت به وذابت فيه .

قال تعالى على لسان هؤلاء الإخوة : ( يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ) .

وقال تعالى:( تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ) .

ولا يمكن أن نستبعد مؤثراً مهماً على شخصيات الإخوة ، أسهم بقسط وافر على حملها إلى التطور السريع حيث الخير والصلاح . هذا المؤثر هو شخصية نبي الله يعقوب ، الرجل الطيب القلب ، الصافي الضمير ، النقي السريرة .

إن المتأمل لشخصيات الإخوة أول القصة يحس أنها تسير في خط غير الخط الذي يسير فيه يعقوب وابناه الحبيبان يوسف وبنيامين .

حتى إذا طلب يعقوب من أبنائه أن يذهبوا مرة أخرى فيتحسسوا من يوسف وأخيه ، إذا بالإخوة لا يملكون إلا أن يلبوا النداء . وفي ذلك الكثير من المعاني الطيبة .

وإن الموقف النبيل من الإخوة ، المتطور تجاه الخير والصلاح ، خير مهيئ لأنفسنا للانتقال مع الإخوة إلى قمة الخير والصلاح التي مثلها هؤلاء الإخوة في اللحظات التي سبقت تبيّنهم حقيقة العزيز والفترات التي تلت ذلك .

ونميل إلى الاعتقاد بأن كل أبناء يعقوب نبي الله – ويستثنى يوسف نبي الله ، فإن له درجة خاصة به – كانوا يرفرفون في أعلى الدرجات تقوى وصلاحاً وإيماناً حتى توفاهم الذي بيده ملكوت كل شيء .

فإذا تأملنا القول الذي جرى على لسانهم انتهينا إلى أنه قريب في روحه وجوهره من القول الطيب الطاهر الذي يجري على لسان يعقوب ويوسف عليهما السلام .

وكأن هناك نبعاً صافياً واحداً يستقى منه يعقوب وبنوه .

وإن الفرق ليتّركز في أن يعقوب وابنه يوسف نبيان ، وليس كذلك باقي الإخوة .

وفي إمكاننا أن نتأمل كل جزئية من كلام الإخوة على حِدَة ، في هذا المشهد في هيئة ومضات من نور ، وكيف بلغت الأحداث قمتها ؟ والطريقة المريحة التي عولجت بها ، والنهاية السعيدة المرتقبة .

هناك أولا هذه الجزئية ( يا أيها العزيز ) وهي تدل من ناحية على المنزلة الرفيعة العالية في نفوس كلّ الإخوة ، ومن ناحية أخرى على أنهم واثقون الثقة كلها بأنهم إنما يخاطبون عزيز مصر وليس أي شخص آخر .

وهذا بدوره دليل على أن الكيد للإخوة متقن الحبكة دقيق التنفيذ ، لأنهم كانوا مقتنعين تماماً بأن الأمور كلها تسير سيراً طبيعياً .

وهناك هذه الجزئية ( مسّنا وأهلنا الضرُّ ) وتأمل جملة مسّ ، التي تدل أساساً على التماسّ التام بين الماسّ والممسوس .

وهي جملة دقيقة التعبير ، ولكنها بسيطة تتمشى مع نفسية هؤلاء الإخوة المنكسرة التي همّها موجّه إلى حل الورطة التي هم فيها وليس إلى التفخيم والتهويل .

وتأمل لفظ الأهل الذي يستخدمه الإخوة هنا ( مسنا وأهلنا الضرُّ ) وهو يذكرنا باللفظ نفسه الذي سبق أن استعمله الإخوة خطاباً ليعقوب عليه السلام (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ) .

ونعتقد أنهم حينما يستعملون لفظ الأهل في المناسبة الثانية خطاباً للعزيز ، إنما يستعملونه وفي أنفسهم مرارة خيبة الأمل .

لقد أرادوا من رحلتهم الثانية أن يميروا أهلهم ، وإذا بهذه الرحلة تكون سبباً في الضر الذي لحق بهؤلاء الأهل أنفسهم .

ويلاحظ أنه يجيء على لسان الإخوة (مسنا وأهلنا الضرُّ) ولا يجيء مثلا مسنا وأبانا الضرُّ ، والسبب في ذلك أن لفظ الأهل يشمل أباهم أيضاً . ثم إن هذه هي الحقيقة ، إذ شمل الضر آل يعقوب جميعاً .

وإن انكسار الإخوة معنوياً يجعلهم بطريقة عفوية تلقائية ينقلون شمول الضر الذي انتاب آل يعقوب جميعاً ، ويتمثل ذلك في استخدامهم لفظ الأهل وليس أيَّ لفظ آخر .

وتأمل لفظة الضر التي جاءت معرفة بأل ، فكأنهم يقولون ، والله أعلم : مسنا وأهلنا الضر الذي تعرف والذي لا يمكن أن يخفى عليك .

والحقيقة أن الإخوة الذين كانوا على ثقة تامة آنذاك أنهم إنما يخاطبون عزيز مصر ، كانوا يريدون بهذه اللفظة معاني ويتوقعون من العزيز أن يكون على علم ببعضها وليس بها كلها .

إنهم يتوقعون علم العزيز التامّ بالضر الذي حل بهم بسبب شقيق يوسف والأخ الأكبر والمجاعة التي ما زالت تخنقهم مع الفقر المدقع .

ولم يكونوا يتوقعون البتة أن يكون عند العزيز علم بشأن أخيهم يوسف .

وكيف يصل إليه أي علم وهم واثقون أن كبيرهم حريص على إبقاء تفريطهم في يوسف سرًّا ؟ وأنه ليس له عَلاقة مطلقاً بالعزيز . ومن غير المعقول أن يكون بين الشقيق ، الذي ثبت ظاهر السرقة عليه ، وعزيز مصر أدنى عَلاقة .

وهنا نتساءل : من أي زوايا الكلام الأربع يستطيع الإخوة مفاتحة العزيز ؟

هل من المعقول أن يفاتح الإخوة عزيز مصر بشأن يوسف ، على الرغم

من أنهم إنما ذهبوا من عند يعقوب امتثالا لأمره ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ مع علمهم القطعي بأن العزيز لا يعرف أن هناك أخاً لهم اسمه يوسف ؟

بطبيعة الحال لم يكن من المعقول أن يفاتحوه بشأن يوسف ، مع أن خروجهم من بلادهم بسببه أساساً . خاصة وأنهم كانوا حريصين على بقاء ما قاموا به تجاه يوسف في طيّ الكتمان .

ولو أنهم أرادوا أن يفاتحوه في هذه القضية فماذا عساهم قائلين ؟

هل يستطيعون مجرد الإشارة من بعيد إلى وضعهم لأخيهم يوسف في غيابة الجب ؟

قطعاً لا ؛ لأنهم في موقف طالب الرحمة . ولو علم العزيز عن بعض فعلهم بيوسف هل سيرحمهم أم سيغيّر من موقفه السابق معهم ؟ إنهم إلى الافتراض الثاني أكثر ميلا .

وهل يستطيعون مفاتحة العزيز بشأن الشّقيق تمشياً مع قول يعقوب كما جاء في الآية : ﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ ؟ وما معنى هذه المفاتحة ؟

معناها أنهم يحاولون تعطيل حدّ يعقوب نبي الله في السرقة ، الذي يثبت بحق الشقيق في اعتقادهم ، وكان الإخوة ، باستثناء ما فعلوا بحق الشقيقين ، آية في التمسك بأهداب الدين والتقوى ، إذن لن يستطيعوا مفاتحته في هذا الموضوع أيضاً .

وهل يستطيعون مفاتحته بشأن كبيرهم الذي اشترط ألاّ يبرح أرض مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم له خير الحاكمين ؟

وما دخل العزيز فيهذا الموضوع ؟ إن شاء الكبير أن يعود فليعد ، وإن شاء أن يبقى فليبق .

إذن لم تبق سوى زاوية الطعام والكيل .

ومع أن الإخوة لم يجيئوا أساساً للميرة ، وإنما هي وسيلة من الوسائل ، ومع ذلك فإنها هي فقط التي تستطيع إخراج الإخوة من الحيرة التي وجدوا أنفسهم فيها . فهي الزاوية الوحيدة التي يستطيعون مخاطبة عزيز مصر منها

ونعتقد أن إشارة الإخوة صراحة إلى دراهمهم غير الجيدة لم تكن غريبة على مسمعي العزيز بل لعله كان ينتظر كلاماً كهذا ، فالمظنون أن الدراهم الجيدة استنفدتها أو كادت الرحلة الثانية ، وكان يوسف على علم بهذه الحقيقة عن طريق أخيه بنيامين .

ومعنى هذا أنّ الدّراهم التي هذه صفتها مظهر من مظاهر الضر الذي حل بآل يعقوب .

ومعروف أن الدراهم وسيلة للحصول على الطعام .

فاتضح بناء على ذلك أنّ هذه الجزئية ( وجئنا ببضاعة مزجاة ) كما أنها وثيقة الصلة بالضرّ ، لأنها مظهر من مظاهره ، هي كذلك توطئة ضرورية للجزئية التي أتت بعدها مباشرة والتي تمّ فيها طلب الطعام بشكل صريح .

والحقيقة أنّ الحاجة الملحة إلى الطعام بسبب المجاعة التي طبّقت الآفاق ، لا يقتصر دورها على فرض معجم لغوي من نوع معين ، بل يتعدى ذلك ، وهذا على درجة كبيرة جداً من الأهمية إلى دفع عجلات أحداث القصة إلى الأمام .

فبسبب الحاجة إلى الطعام توجه الإخوة أول الأمر إلى عزيز مصر ، وبالطعام أغراهم كي يأتوا بأخيهم من أبيهم إليه .

وهل كانت الدراهم التي وضعها يوسف في رحال الإخوة ، أو البضاعة ، إلا ثمناً للطعام الذي اشتروه من العزيز ؟

ألم يكن كيل البعير الذي منّى الإخوة به أباهم ، بأن يكون من نصيب الشقيق ، إلا سبباً لجعل يعقوب يسمح لهم بأخذ الشقيق معهم ؟

أو ليس الصواع الذي وضعه يوسف في المرة الثانية للاحتفاظ بشقيقه هو ما يكال به الطعام ؟

ألم يَعد المؤذن في صورة مؤكدة بأن الذي يجيء بالصواع له حمل بعير ؟

وحينما طلب يعقوب منهم أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه ، ألم يكن للحاجة إلى الطعام دور في تحديد وجهتهم إلى مصر ؟

والآن يتبينون أن الباب الوحيد الذي يستطيعون الولوج منه للحديث إلى العزيز هو الطعام أيضاً .

ولكنهم يتبينون كذلك ، أن دراهمهم اليوم غيرها بالأمس ، لقدكانت دراهمهم جيدة ، أما اليوم فزيوف وغير جيدة ، وهنا تجيء على لسانهم هذه الجزئية : ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ أي وجئنا بدراهم غير جيدة ، كلُّ من وقعت عليها عينه من التجار دفعها ورفض قبولها .

ويمكن أن يستفاد من هذه الجزئية ما يلي :

(أ) هي تدل على ثقتهم المطلقة في كرم العزيز وإحسانه للدّرجة التي يقبل فيها الدراهم التي يرفضها كل البائعين سواه .

(ب) هي تدل على الشدة التي كان فيها يعقوب وآله ، والتي أكلت الأخضر واليابس ، ولم يبق لديهم سوى هذه الدراهم .

(جـ) هي تدل على الحالة التي يرثى لها للإخوة ، وانكسار روحهم المعنوية .

(د) هي تدل على تقوى هؤلاء الإخوة وصلاحهم .

إنهم ينصّون صراحة وفي أقوى الصور بأن دراهمهم رديئة لا يمكن أن يقبلها أي تاجر .

وتأتي بعد ذلك مباشرة هذه الجزئية ﴿فأوف لنا الكيل﴾ .

ويمكن أن يستفاد منها أيضاً ما يلي :

(أ) هي تؤكد ثقتهم المطلقة في كرم العزيز وإحسانه وتفضله .

إنه لتكرم كبير منه مجرد قبول دراهمهم غير الجيدة التي رفض قبولها كل تاجر ، فلو أعطاهم من الكيل ما يقابل الثمن الحقيقي لها ، إن كان لها ثمن ، فذلك شيء جميل منه حقاً .

ولكنهم كلهم ثقة واطمئنان في أن يوفي لهم الكيل ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ لا أن يكيل لهم فقط ما يوازي ثمن دراهمهم .

(ب) يستعير الإخوة هنا في الحقيقة ما سبق أن قاله العزيز لهم في المرة الأولى ، وما ترجمه فعلا إلى عمل:﴿ ألا ترون أني أُوفي الكيل ﴾ .

ألم يقل في المرة الأولى بعد هذه الجزئية مباشرة ، وقد ترجمه إلى عمل أيضاً ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ .

(ج) هي تعمّق الانكسار النفسي الذي كان فيه الإخوة ، الذي يعمقه بدوره قولهم مباشرة كما جاء في الآية ﴿ وتصدق علينا ﴾ .

إن هؤلاء الإخوة ، بعد كل ما قالوا ، ليسمحون لأنفسهم أن يطلبوا من العزيز أن يفعل شيئاً يثيبه الله عز وجل عليه ، أن يتصدّق عليهم بما تجود به نفسه السخية من كيل يواجهون به الشدة المتمكنة منهم ، وحاجتهم إلى الطعام الملحة ، كي يبقوا عند أبيهم ، فيما لو قدر لهم العودة إلى بلادهم ، مدة أطول .

ويلاحظ أن ظاهر هذه الجزئية يفيد أن الصدقة كانت جائزة على آل إبراهيم ، وقد نصّ على ذلك البعض ، وهو ما أقول به ، والله أعلم .

ونودّ أن نقف عند حرفي الجر وضمير جماعة المتكلمين « لنا » و « علينا » في الجزئيتين « فأوف لنا الكيل وتصدق علينا » .

فإن حرص الإخوة في كل من المناسبتين على حرفي الجر وضمير جماعة

المتكلمين ، مع إمكان الاستغناء عنهما ، دليل على التدهور النفسي المعنوي الذي كانوا فيه .

وكي يتضح ذلك الانكسار نتساءل : هل ينتظر المتصدق من المتصدَّق عليه شيئاً ؟

لا ؛ بطبيعة الحال .

أتجوز الصدقة على كل الناس أم على فئات معينة ؟

على فئات معينة .

هل تستطيع فئة من هذه الفئات أن تجازي المتصدق عليها ؟

لا ؛ بطبيعة الحال ، وإلا لما جازت عليها الصدقة .

ثم إن المتصدق والمتصدق عليه على علم تام بأن الله تعالى هو المجازي .

إذا عبر شخص تقي صراحة وقال : تصدق عليّ ، هذا يعني أنه صادق أم غير صادق ؟

هو صادق ولا شك .

فإذا أضاف قائلا : ( إن الله يجزي المتصدقين ) فما معنى قوله هذا ؟

معناه أنه واثق من أنه لن يستطيع يوماً من الأيام ، في اعتقاده ، أن يكافىء المحسن عليه ، وأن الله تعالى يتحمل عنه الجزاء .

هذا ما قاله الإخوة ، وهذا هو حالهم .

وإنا لنتبين في هذه الجزئية ( إن الله يجزي المتصدقين ) صفاء روحياً يمثل مرحلة متطورة من المراحل التي مر بها الإخوة من قبل .

وبالإضافة إلى أنها تصوّر صفاء الإخوة الروحي ، هي تعكس الصفاء الذي استفادوه من والدهم والذي تبينوه في نفس العزيز ، ذلك الصفاء غريب الوجود في مثل ذلك المجتمع الذي فيه العزيز .

لقد شعر الإخوة في الأعماق بانجذاب روحي إلى شخصية العزيز .

والذي ساعد على ذلك اتّجاه الإخوة السريع إلى الخير والصلاح ، وارتفاع درجة الصفاء الروحي فيهم .

وقد ساعد على تبلوره في هذه الصورة ذلك الغيض من فيض تواضع نبي الله يوسف وخلقه العظيم .

ومن هنا جاز لنا أن نتبين نوعاً من شبه بين الصفاء الروحي الذي يشع بدرجة معينة من كلام الإخوة ، والذي يشع بدرجة كبيرة جداً من كلام نبي الله يعقوب ويوسف عليهما السلام .

ولا ننسى أن المقصود الأول من هذه الجزئية على لسان الإخوة ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾ هو يوسف نبي الله .

وكأن الإخوة يخاطبون على علم ، واحداً من أتباع الشريعة الإبراهيمية ، لأنه لاح لهم ، كمال دين ، وعظم خلق ، في أحسن الصور التي يلوح فيها هؤلاء الأتباع . فكان خطابهم له خطاب خير ممثل لهذه الشريعة ممن اعتادوا مخاطبتهم ، وأثبتوا أنهم ألمعيون حقاً .

وبما أنه لم يكن هناك مخلوق سوى يوسف على علم بوضع يوسف في غيابة الجب ، وبالتالي لا يمكن أن يصدر كلام كهذا ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ إلا من يوسف . لذلك كان هذا السؤال على لسانهم « أإنك لأنت يوسف » ؟ طبيعياً جداً(١) .

ومع أنهم لم يكونوا ليخطر على بالهم أن العزيز الذي يخاطبون هو أخوهم

---

١ ـ سنعود ان شاء الله تعالى الى تبين خفايا شخصيات الاخوة فى هـــذا المشهد بالذات حينما نتكلم عن شخصية يوسف عليه السلام ، وذلك بسبب التلاحم التام بين ماقاله الاخوة ويوسف ، والحقيقة اننا بين امرين ، اما ان نســـهب عن الإخوة هنا ، وسنضطر الى الإسهاب اثناء حديثنا عن يوسف ، فنتورط فى التكرار ، وأما ان نقول الضرورى الآن ، ونسهب اخيرا ، وهذا ما ارتأيناه ، لان الامر الاول يعنى اننا سنسهب عن يوسف ، بينما لا نعرف عنه حتى الآن الا الضرورى والقليل .

يوسف ، إلا أنهم مهيأون من الوجهة النفسية ، بسبب الأمل الكبير الذي ألقاه في رُوعِهِمْ والِدُهُمْ ، لأن يقتنصوا الشاردة والواردة مما له عَلاقة بأخيهم يوسف ، فكيف إذا سمعوا كلاماً لا يمكن أن يصدر إلا منه ؟

لذلك لم يكن غريباً أن يوقن الإخوة بأن الذي يسألهم في هيئة الاستفهام الإنكاري ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ هو يوسف أخوهم . فليس هناك من دليل أبلغ من هذا .

وكان جواب يوسف عليهم بالإيجاب ، فزال عنهم وطء مفاجأة الاستفهام الإنكاري . قال تعالى: ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ .

وإن في الإمكان أن نقسم هذا الكلام إلى قسمين :

الأول : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ .

والثاني : ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ .

وحينما نتأمل القسم الأول ، فإنا نتبين أنه عبارة غاية في القوة فنحن بصدد تاء القسم ولفظ الجلالة المقسم به . فما زال الإخوة يستعملون هذه الصيغة من معجمهم اللغوي . ونشمّ منها معنى التعجب وبصدد اللام التي تفيد التوكيد . وقد التي تفيد التحقيق .

وهي جزئية تتضمن ، كما هو واضح ، اعترافهم الصريح بأن الله تعالى قد آثر يوسف من بينهم بفضله .

ولا يقتصر ذلك على الحاضر فقط ، للمنزلتين العاليتين ، الدينية والدنيوية اللتين يلوح فيهما يوسف عليه السلام . إنما يمتد هذا الاعتراف ليشمل في شيء كبير من لوم الإخوة لأنفسهم وتأنيب ضمائرهم لهم ، الماضي البعيد جداً .

وإن لسان حالهم ليقول : لقد كان الأولى بنا ونحن عصبة من الرجال ، أن يعدّل بعضنا بعضاً ، أن نفهم في اقتناع ، بأن محبة يعقوب والدنا الفائقة ليوسف بالذات ، قَدَرٌ من الله تعالى عليه ، لا يد له فيه ولا قدرة له على دفعه . خاصة وأن أبانا ، فيما له قدرة عليه ، الغاية في العدل بيننا جميعاً .

إنها لزلة الأبد ، أن نتورط ، ونحن عصبة من الرجال ، في جعل غلام صغير في غيابة الجبّ ، إنه عمل مخز يُسْتَحَى من مجرد تمثله في المخيلة ، فكيف به وقد حدث في الواقع ولكنه الشيطان عليه لعنة الله ، هو الذي زين لنا سوء عملنا .

وإذا كان هذا القسم اعترافاً بالخطأ ضمناً ، فهو في حقيقته ممهد للاعتراف الصريح بالخطأ في القسم الثاني من الآية (وإن كنا لخاطئين) وهذا الاعتراف في حقيقته أبلغ الاعترافات الثلاثة أثراً . ويلاحظ أنّ صيغة خاطيء تستعمل عادة بشأن المتعمّد ارتكاب الخطأ ، وليس كذلك المخطيء .

الاعتراف الأول جاء في سكوت الإخوة على لوم أخيهم الأكبر العنيف لهم .

والثاني جاء في سكوتهم أيضاً على طلب والدهم أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه .

وهذا الاعتراف الثالث يجيء بصريح العبارة وأمام الشخص المجني عليه ، ومن هنا كان أبلغ الاعترافات الثلاثة أثراً .

وحينما نتأمل هذه الآية ككل ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ نتبين فيها روحاً صافية ، واستشعاراً بعيد المدى بالذنب ، وجواً مشبعاً بالروح الدينية ، وإقبالا أكيداً على الله تعالى . إن الصفاء الروحي الذي كانوا فيه يهيئهم لأن يتكرر لفظ الجلالة في الجزئية الأولى من الآية مرتين .

والشيء اللطيف في إحساس الإخوة العميق بعظم الذنب هو أنهم يقفون عند حد الاعتراف ، ولا يتعدونه إلى طلب العفو ، وربما كانوا مهيئين هذا

الطلب لعرضه في اللحظة المناسبة أثناء الحديث الذي اعتقدوا أنه سيطول مع أخيهم.

ولكن النبيل يوسف وفّر عليهم مشقة هذا الطلب ، بإعراضه عن اللّوم مجرداً ، قال تعالى على لسانه: ﴿قال لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ .

مشهدان أخيران للاخوة :

ويبقى بعد ذلك مشهدان يظهر فيهما الإخوة ، أحدهما مع يعقوب والدهم وآله ، والثاني في مصر مع يوسف عليه السلام .

أما المشهد الأول فذلك حينما ذهب الإخوة بقميص يوسف إلى يعقوب وقام البشير بإلقائه على وجهه فارتد بصيراً .

قال تعالى : ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ وأول ما نود الوقوف أمامه بإكبار هو أن الإخوة أخذوا قول يوسف كما جاء في القرآن ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ قضيّة مسلّمة غير قابلة للمناقشة . وهذا دليل على المنزلة العالية الرفيعة التي احتلّها يوسف في قلوب إخوته .

ونميل إلى الاعتقاد بأن عدد الإخوة الذين رجعوا هذه المرة إلى يعقوب أحد عشر أخاً . فإذا كان يوسف نبي الله ، قد بقي في مصر ، بإيحاء من الله تعالى الذي شاءت إرادته أن يتحوّل يعقوب وآله من الشام ، حيث المجاعة ، إلى مصر حيث الخصب والخير الوفير ويكون في انتظارهم خارج المدينة يوسف عليه السلام ، وتُعبَّر الرؤيا التي سبق أن رآها وقصها يوسف على والده ، فإنا لا نرى مبرراً لعدم عودة أي ابن إلى يعقوب .

فقد أشرنا من قبل إلى أننا نميل إلى الاعتقاد بأن أَوْلى أبناء يعقوب بكونه البشير الذي يحمل القميص من مصر ويلقيه على وجه أبيه في الشام هو الابن الأكبر .

أما فيما يتصل ببنيامين فنعتقد أنه ما كان له ألّا يكون مع إخوانه الحاملين لكل هذه البشائر لسببين :

السبب الأول هو أنه سلوة يعقوب عن ابنه الحبيب يوسف . وبما أن يوسف لم يكن معهم وتأكّد يعقوب من كونه حياً يرزق ، فإنه حينما يرى بنيامين فكأنه قد رأى يوسف حتّى حين .

والسبب الثاني هو أن يوسف الذي لم يكن بإمكانه أن يأتي ، فإنه يجب أن يمثّله هذه المرة واحد من إخوته ، يقوم بالواجب منابه . ولا نرى أحداً من الإخوة أوْلى بالقيام بهذه المهمة من بنيامين . وهكذا عاد عدد أبناء يعقوب أحد عشر ابناً ، وعن قريب يكتمل عقدهم بجوهرته ، يوسف عليه السلام .

فإذا تأملنا ما جرى على لسان هؤلاء الإخوة ، خطاباً لوالدهم يعقوب ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ فإنا نجد أنفسنا أمام التوطئة التي سبق أن لقنها الأخ الأكبر تسعة من إخوته « يا أبانا » وهي هنا تفيض محبة وحناناً وإحساساً عميقاً بالإساءة البالغة إليه من جانبهم .

ثم هم يأتون بالذنوب في صيغة الجمع ، وليس المفرد ، دليلا على إحساسهم بعظمها. فإذا انتقلنا إلى تأمل باقي الكلام ، فالذي يلفت انتباهنا التطور الجديد الذي طرأ على موقف الإخوة .

إنهم سبق في كلامهم مع يوسف أن اكتفوا بالاعتراف بالخطأ الذي ارتكبوه عن عمدٍ وسابق إصرار .

أما هنا فإنهم يقدمون طلب الاستغفار لهم على الاعتراف بالخطأ وليس العكس فلماذا ؟

والجواب على ذلك هو أنه بالإضافة إلى أن الإساءة أساساً لم يكن يُقصد بها إلا يوسف ، وأنها شملت بالضرورة يعقوب ، فإن للأبناء عادةً دالّةً على والدهم ليست لهم على أخيهم ، خاصة إذا كان هذا الأخ قد أساءوا له من قبل ، في تلك الصورة العجيبة الغريبة .

ثم إن الإخوة كانوا على يقين تام من أن السرور الذي هجم على يعقوب أذهله عن كل إساءة لحقته . أرادها الأبناء أم لم يريدوها .

وهل فكر يعقوب نبي الله ، يوماً من الأيام ، حينما كان الابتلاء في أوْجه ، أن يوجه إلى واحد من الأبناء لوماً أو تثريباً ؟

وهل في إمكانه ألا يصفح وقد هجم عليه السرور من كل ناحية ، وعما قريب يكمل سروره بضمّ ابنه الحبيب يوسف وشمّه ؟

لكل هذه الأسباب قدم الإخوة الطلب من يعقوب أن يستغفر الله لهم ، وتلا ذلك الاعتراف بالخطأ صراحة أمام يعقوب لأول مرة .

فإذا انتقلنا إلى المشهد الآخر في مصر ، فلا نجد واحداً من الإخوة يقول أو يفعل شيئاً ، ويقتصر وجودهم على تعبيرهم بحركاتهم عن تأويل رؤيا يوسف عليه السلام .

قال تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ وبهذا يسدل الستار على آخر الأدوار التي قام بها إخوة يوسف الأحد عشر .

**المشاهد الأربعة الأخيرة ليعقوب عليه السلام :**

فإذا تحولنا إلى يعقوب نبي الله ، فإن هناك أربعة مشاهد يظهر فيها عليه السلام .

المشهد الأول:حينما فصلت العير التي فيها قميص يوسف من مصر ، فإن يعقوب وهو في الشام وجد ريح يوسف وتم الكلام المعروف بينه وبينهم .

والمشهد الثاني:حينما جاء البشير بالقميص فألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً وجرى على لسانه وألسنة أبنائه الكلام المعروف .

والمشهد الثالث:حينما دخل يعقوب وآله على يوسف في مصر فآوى إليه أبويه ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ .

والمشهد الرابع: حينما ﴿ رفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ﴾

وفيما يتصل بالمشهد الأول فإن العير حينما تحركت من مصر وخرجت من عريشها بقصد أن تقطع ما بين مصر وكنعان ، والمسافة بينهما ثمانون فرسخاً . إذا بيعقوب عليه السلام يقول كما جاء في الآية: ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ إنه يجد ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمانين فرسخاً .

والحقيقة أننا حينما نتأمل هذه الآية فإنا لا نستطيع إلا أن نقول : إننا بصدد معجزة لنبي الله يعقوب ، وإن كلامه الغاية في الوضوح والاطمئنان إلى صحّة ما يقول. إنه يجيء على لسانه جملة أجد وليس جملة أشمّ مثلا فكأنه ضم ابنه الحبيب فشمه واستنشق ريحه ، وهو الرجل الأعمى ، فأسعفته حاسة الشم في هذه المناسبة الإسعاف كله .

وقد سبق هذه الجملة إنّ واللام اللتان تفيدان التوكيد .

كما يجيء على لسانه لفظ « ريح » وليس رائحة . وفرق بينهما . فالرائحة تفيد الكمية القليلة منها ، وقد تكون آتية من بُعد ، أما الريح فتفيد القوة والقرب معاً .

وما معنى قول يعقوب: ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ ؟

معناه أن يوسف حي يرزق ، بل معناه أن ريحه متجهة إليه ، بل إنها ليست بعيدة منه .

وإذا كان كل ذلك يفهم من كلامه ضمناً ، فإن الجزئية التالية ﴿ لولا أن تفندون ﴾ قوة لما سبقها على ذلك الفهم ، إذ إنّها تكاد تكون قولا صريحاً يقرب لقائه بابنه الحبيب يوسف . ولولا خوفه من نسبة آله له إلى ضعف الرأي لَصَرَّحَ بذلك .

فإن معنى هذه الجزئية ﴿ لولا أن تفندون ﴾ لولا خوفي من نسبتكم الخَرَفَ لي لكان لي تعبير أكثر صراحة ووضوحاً ، ولقلت لكم قد حانت ساعة لقائي بابني الحبيب يوسف بعد طول غياب . والله أعلم .

ويجمل بنا أن نتمثل أبعاد هذا الموقف من يعقوب نبي الله على حقيقته ، فلعله يعرف أن أبناءه قد توجهوا إلى مصر حيث العزيز ، ولكنه بكلّ تأكيد ليس عنده علم بأي شيء وراء ذلك .

وكيف يعلم أن العزيز هو ابنه وأنه كشف لإخوته عن حقيقة نفسه وأعطاهم قميصاً له وطلب منهم أن يلقوه على وجه أبيه كي يرتدّ بصيراً ؟

وكيف تمّ هذه الموافقة بين تحرك القافلة من مصر ، وتحرك ريح يوسف في المكان الذي فيه يعقوب ؟

إننا لنقف مشدوهين أمام هذه الأمور العجيبة التي شاء لها القادر على كل شيء أن تكون .

ونستطيع أن نقول بقلوب مؤمنة مطمئنة : إنها النبوة والمعجزة لنبي الله يعقوب .

وحينما نتأمل هذا الموقف الجديد ليعقوب نبي الله في ضوء مواقفه السابقة فإنا نستطيع أن نقول : إن اليأس لم يتسرب إلى نفس يعقوب نبي الله وقتاً من الأوقات منذ اللحظة التي صعقه فيها النبأ الجلل بأكل الذئب ليوسف حتى هذه اللحظة والموقف الذي يجيء فيه على لسانه ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ .

وإنما كان متفائلا ، وإنما كان آملا ، وكان أمله إيجابياً دائماً ويتجه صُعُدا باستمرار حتى كانت القمة التي ليس وراءها قمة في هذا القول الأخير الذي جرى على لسانه والذي وافقه الواقع حينما جاء البشير فألقى قميص يوسف على وجهه فارتدّ بصيراً .

وإن هذه الموافقة بين القول والفعل تجعلنا نقول : إن هذه ببساطة معجزة لنبي الله تعالى يعقوب عليه السلام .

وكان جواب الحاضرين معه ، المستمعين له ، موافقاً لتوقّعه عليه السلام .

قال تعالى عنهم : ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ .

وتأمل تاء القسم ولفظ الجلالة المقسم به ، وإن واللام من « إنك لفي ضلالك القديم » وكلاهما يفيد التوكيد . وصفة الضلال البعيدة المرمى من قولهم : « في ضلالك القديم » والمراد بالضلال القديم ، لهج يعقوب بذكر يوسف ، الذي يرجح الحاضرون من الأهل أنه ميؤوس من العثور عليه .

وإذا تتبعنا موقف الأهل من يعقوب الذي لا يفتأ يذكر يوسف .

ووقفنا على تنبيه الإخوة ، وهم جزء من الأهل ، بأن عليه أن يكون رفيقاً بنفسه كيلا يتحوّل شبه الهلاك الذي هو فيه إلى هلاك محقّق .

وعرفنا أن الأهل يجهلون تماماً ما حدث في مصر ، وإذا بيعقوب عليه السلام ، الذي يتمنون ألا يأتي اسم يوسف على لسانه يفاجئهم ، ودون مقدمات ، في صورة قوية من التعبير كلها ثقة بقوله: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ فإنا ننتهي إلى أنه من الطبيعي جداً أن يكون موقف الأهل الذين يطلبون النقصان فيفاجأون بالزيادة هكذا من يعقوب ؛ وأن يَعَبِّروا له صراحة بأن ما يسمعونه منه الآن ما هو إلا امتداد لضلاله القديم ، في أمله العقيم بكون يوسف ما زال على قيد الحياة ، ذلك الأمل الذي يسير في اعتقادهم سيراً عكسياً ، فالأَوْلَى بأمل من كان في مثل وضع يعقوب أن يخفّ فيذوب فيفنى، ولكن أمله لا يزداد مع مرور السنين إلا شِدّة وقوة .

وإذا نظرنا من ناحية ثانية إلى قول يعقوب عليه السلام ، من زاويته هو ، الذي يجهل مثلهم تماماً كل ما حدث في مصر ، فإنا نجد أمله يسير سيرة طبيعية أيضاً .

وهكذا يتضح أن الأمل الحي من جهة يعقوب والخوف الحي عليه من جهة الأهل ، يسيران سيراً طبيعياً .

ووصلت العير أخيراً إلى كنعان ، وكأني بالبشير الآن ، وهو الذي سبق

أن أحضر قميص يوسف وعليه الدم الكذب ، يسبق إخوته الآن في الدخول على أبيه ، وحمل هذه البشارة إليه ، فليس بين إخوته من هو أولى بهذه البشارة وأحرص عليها منه .

وقد رجحنا من قبل أنه الأخ الأكبر .

قال تعالى عن هذا المشهد : ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم﴾ .

ونستطيع أن نقول ابتداءً : إننا بصدد تعامل وتفاهم من مستوى معين عال بين يعقوب ويوسف عليهما السلام .

فنحن أولا أمام البشير بصيغة المفرد ، الذي حمله إحساسه المرهف على أن يكون أول داخل على أبيه حاملا للقميص ، ملقياً به على وجه أبيه فارتدّ بصيرا .

وسواء تم الإلقاء أمام باقي الإخوة العشرة ، وهذا ما نرجحه إذ ما لبث أن توالى باقي الإخوة ، أم لم يتم ذلك أمامهم ، فالذي لا شك فيه أن دور الريح المنعش للقميص أخذ في القوة المطّردة حتّى دخل البشير بالقميص .

وكان يعقوب يزداد يقينه بأن ساعة اللقاء بيوسف آخذة في الدنو .

وقد بلغ هذا اليقين ذروته حينما ألقي القميص على وجهه فارتد بصيراً .

إن وجود يعقوب لريح يوسف معجزة ليعقوب عليه السلام .

وإن عودة الإبصار إلى كلتا عينَي يعقوب بإلقاء قميص يوسف على وجهه بأمر يوسف ، معجزة ليوسف عليه السلام .

وقد فهم يعقوب بهذه العملية كل شيء ، لقد فهم أن ابنه قد اصطفاه الله تعالى بالنبوة .

وليس للفرح بهذا الفهم وبأن ابنه مسلم لله رب العالمين من مزيد .

ويا له من فرح آخر هجم على يعقوب نبي الله ، حينما وقعت عيناه أولا وقبل أي شيء ؛ بعد عودة الإبصار إليهما ، على أبنائه الأحد عشر . ولم يبق سوى يوسف عليه السلام .

وهكذا يتضح أننا بصدد نوع سام من التفاهم مقصور على يعقوب ويوسف.

ومن هنا جاز لنا أن نفهم أن يعقوب ما دام على يقين من نبوة ابنه يوسف ، فمعنى هذا أنه لم يكن محتاجاً أساساً لأن يسأل أبناءه عن الدّين الذي تركوا عليه أخاهم .

وما الذي جرى على لسان يعقوب نبي الله من قول ، بعد أن أصبح أمله الكبير في الله الكبير المتعال حقيقة ؟

قال تعالى عنه: ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ .

فنحن أولا بصدد « لكم » التي كان بإمكان يعقوب أن يستغنى عنها لو شاء ، ولكنه حريص على شد انتباه أبنائه إليه شدّاً وإشعارهم أنهم هم المقصودون أولا بقوله المتكرّر سابقاً:﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ .

ولا يخفى الدور التوكيدي لإنّ ، والدور القوي للفعل « علم » .

وتأمل هذه اللفتة الكريمة في قوله : « من الله » إنه التواضع الدائم الجم لله تعالى ، وإنه الشكر والحمد والامتنان له عز وجل .

وقد قدّم يعقوب هذا القول : « من الله » ووضعه في المكان الذي لا يمكن تقديمه عنه . وفي ذلك إشعار دائم بأن المصدر لهذا العلم غير العادي هو الله المتفضّل ، الذي لا تعدّ نعمه ولا تُحصى آلاؤه .

وهذا القول على لسان يعقوب: ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يعين مستوى العلم الذي لا يمكن أن يصل إليه أبناء يعقوب ، والذي هو قَصْرٌ عليه وعلى ابنه يوسف عليه السلام .

وهذا من الأدلة المتعددة على أن النبوة مقصورة بين أبناء يعقوب . على يوسف .

وبعد أن طلب الأبناء الذين يهمهم الأمر من يعقوب أن يستغفر لهم كما قال تعالى: ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ كان من الطبيعيّ جداً أن يجيء على لسان الأب الحنون قوله تعالى: ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

ونود أن نقف ملياً عند لفظ « سوف » الذي تعمّد يعقوب استعماله وليس السين مثلا . ولا يخفى أنّ السين تدلُّ على المستقبل القريب وأنّ سوف تدل على البعيد .

فلماذا أرجأ يعقوب نبي الله ، الرجل الطيب القلب والأب الحنون استغفاره لبنيه ؟

والجواب على ذلك في اعتقادي ، والله أعلم ، هو أن التأجيل لا يخرج عن احتمالين :

الأول،أن يكون يعقوب نبي الله يريد أن يتحرّى أنسب الأوقات التي يعتقد أن نفسه ستكون أكثر صفاء ، وقلبه أكثر إقبالا على الله تعالى ، علّ الله عز وجل يستجيب دعاءه .

والاحتمال الثاني : أن يكون نبيُّ الله يعقوب تعمّد تأجيل الدُّعاء حتى يتوّج فرحه بلقائه الفعليّ بابنه الحبيب يوسف وضمه .

فعلى الرّغم من أنّ كلّ شيء يقول بأن اللقاء الأكيد بإذن الله تعالى قريب . إلا أن اللقاء الفعليّ ضروري ، كي تعود نفس يعقوب إلى صفائها الذي كانت عليه قبل غياب يوسف ، وقلبه إلى راحته .

ولعل الاحتمال الثاني أرجح .

وإن«سوف»على كلّ حال تظل تدلُّ على عتاب صامت من يعقوب لأبنائه .